الدكتور حسين فوزى



سندباد عصرى

سلسلة شهرية
تصدر عن
دار مجلة الاذاعة والتليفزيون

سلسلة شهرية
تصدر عن دار مجلة الاذاعة والتليفزيون

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير
ثروت أباظة

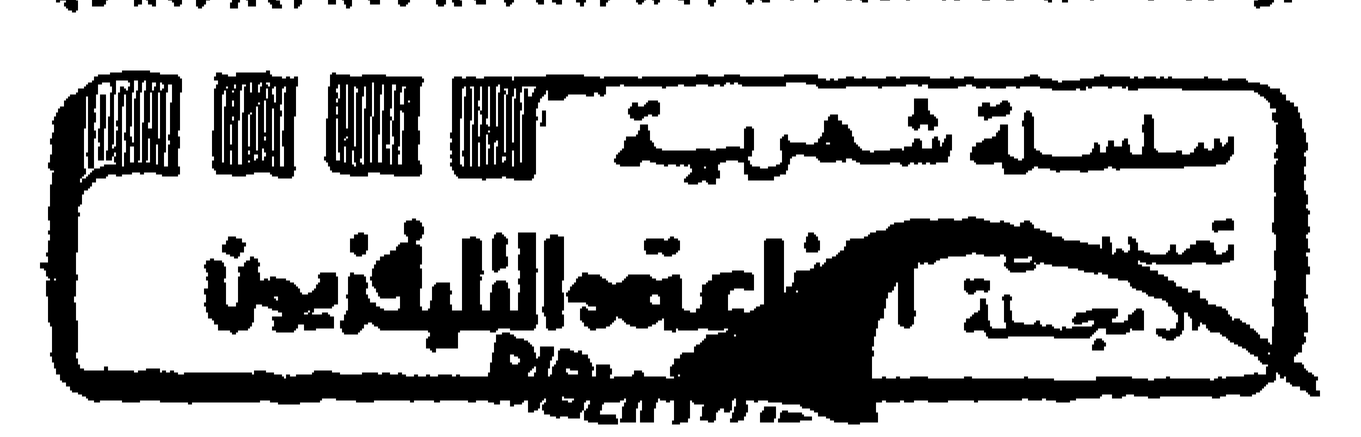
اهداءات ٢٠٠١

الدكتور/ القطب محمد طبلية

القاهرة

سندباد عصري

جولات في المحيط الهندي

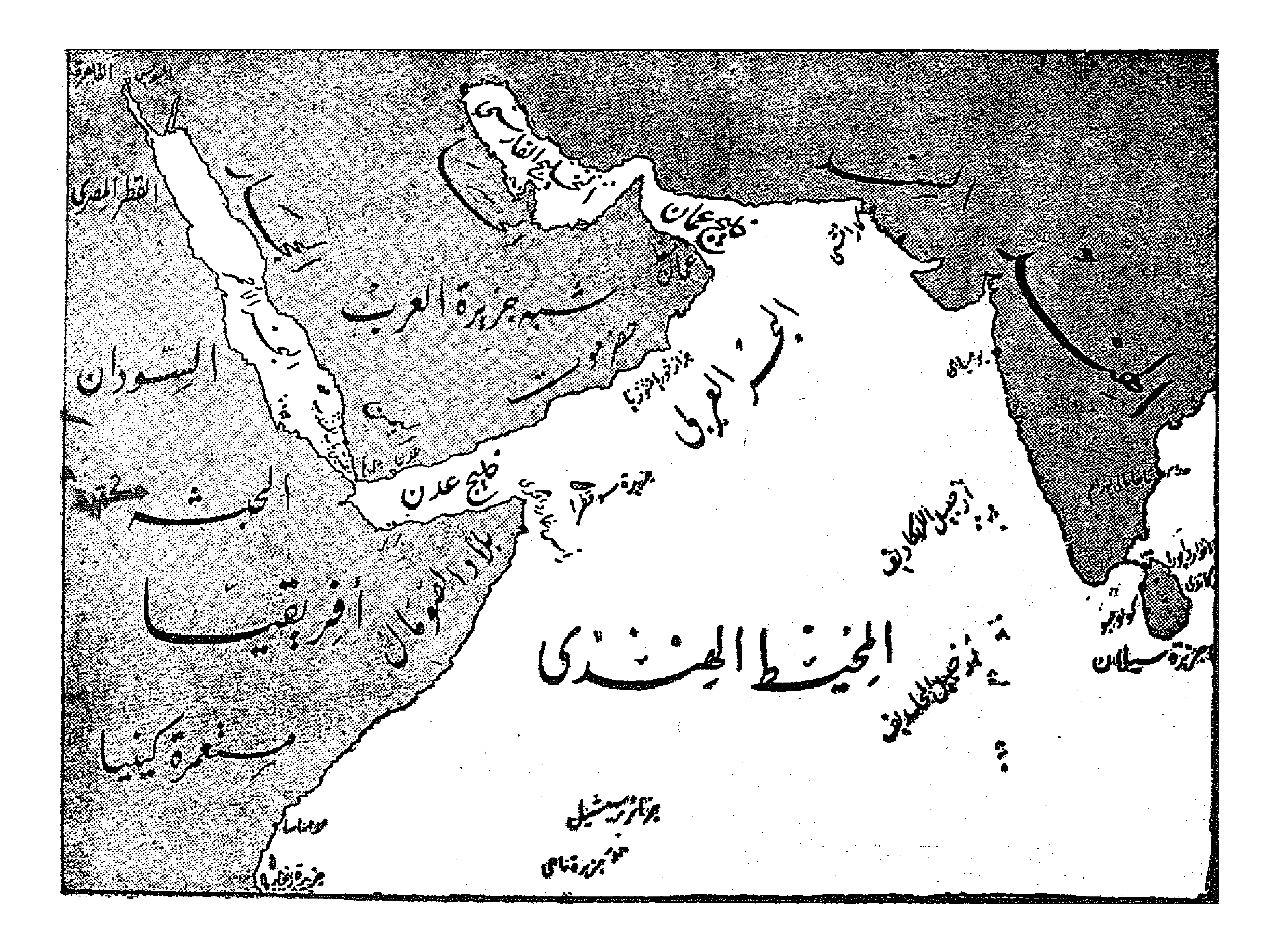


* الاخراج الفنى : مكرم شحاتة

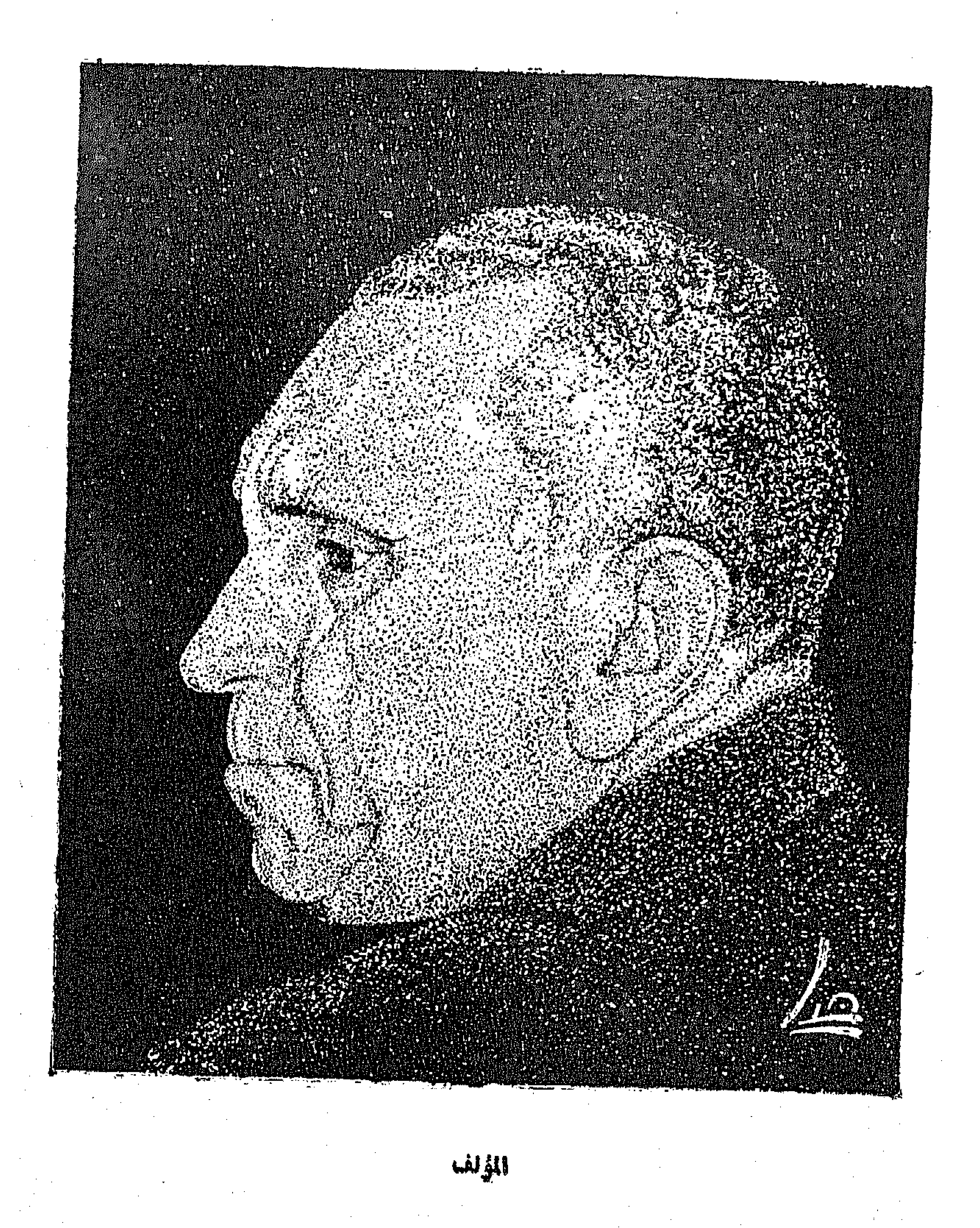
---

* تصميم الغلاف :

الفنانة فايزة فهمى



شبه جزيرة العرب
السودان
الحبشة
أفريقيا
مستعمرة كينيا
بلاد الصومال
خليج عدن
خليج عمان
خليج الفارسي
البحر العربي
المحيط الهندي
الهند
القطر المصري
جزيرة سوقطرة
جزائر سيشيل
جزيرة سيلان



المؤلف

درجت على حب حضارة الغرب ،
والإعجاب بحضارة الغرب ،
وقضيت أهم أدوار التكوين من عمرى
فى أوربا فتمكنت أواصر حبّى ، وتقوّت
دعائم إعجابى . فلمّا ذهبت إلى الشرق
عُدت إلى بلادى وقد استحال الحب
والإعجاب إيمانا بكل ما هو غربى ..

حسين فوزى

مقدمة

في موسم من مواسم الصيف بالأسكندرية كان ركن من اركان الميناء مسرحا لحركة ربما بدت عادية لو لم يكن مدارها سفينة صغيرة قيل بانها تسافر الى المحيط الهندى لتضرب في طوله وعرضه تسعة اشهر . ولولا أن مشحونات تلك السفينة تختلف عما تشحنه السفن عادة ، فهي مجموعة آلات علمية وشباك وصناديق ملآى بآلاف القنينات الفارغة او المحتوية على مواد كيماوية . ولو لم يكن الرجال القائمون بالشحن والترتيب نخبة من شبيبة رقيقة الحواشى ، ناعمة الأيدى يظهر على افرادها أنهم من خريجى الجامعات ، ويغلب فيهم ذوو الشعر الأصفر والعيون الزرقاء . قيل بأنهم أعضاء بعثة أجنبية جاءت تستعير سفينة مصرية بضباطها وبحارتها ، وتشترك مع بعض الاخصائيين المصريين في دراسة مستفيضة لمياه البحر الأحمر والمحيط الهندى وما تكنه من اسرار حية وجامدة .

وذات يوم وفد بعض الرجال الرسميين على مرسى السفينة الصغيرة ، وصعدوا الى باخرة كبيرة مرابطة الى جانبها وتناولوا عليها الشاى بين أصوات الخطباء والتصفيق احتفاء وتوديعا للبعثة الأجنبية . ثم نزلوا الى السفينة الضئيلة ، وتجولوا في انحائها لحظة لم يحتملوا بعدها ضيق الممرات وازدحامها بالآلات والشباك فعادوا الى سياراتهم الفخمة مارين بصفين من البحارة يؤدون لمقامهم

التحيات العسكرية . ما عدا واحدا منهم قصد أن يعرف كيف يعيش أربعون نفسا في هذا السجن العائم مدى تسعة أشهر في عرض البحر . فاكتفى بزيارة طابق الاخصائيين وسط السفينة ، منحدرا اليه على سلم صغير كأنه هابط الى سرداب . وقد خرج الرجل دهشا من تلك المغامرة الكبرى على ظهر سفينة كانت الى جانب الباخرة الراسية حذاءها كأنها مولود صغير وضعته توا .

وسافرت السفينة الضئيلة في اليوم التالي وهي تشهد المودعين بصفيرها على أنها مغادرة حقا مياه الأسكندرية الى مياه البحر الأحمر والمحيط الهندي .

وفي أواخر شهر مايو من السنة التالية كان بعض الرجال الرسميين ينتظرون عودتها في لنش ذهب لاستقبالها عند مدخل ميناء الأسكندرية . وما ان ألقت الباخرة الصغيرة مراسيها في نفس الموضع الذي غادرته منذ تسعة أشهر حتى انطلقت في الفضاء أصوات التصفيق والزغاريد صادرة من بعض ذوي الجلاليب والنساء المؤتزرات بالسواد .

كان من نصيبي أن أركب هذه السفينة طوال رحلتها الهندية . وأن أشترك في مباحثها العلمية ، وأشرف على صحة ركابها . ولقد كتبت في موضع آخر القصة الرسمية للرحلة ، ومقامها من البعثات البحرية التي جابت بحار العالم تكشف عن أسرارها منذ أواخر القرن الماضي ، وأثرها في البيئات العلمية الأجنبية ، وفيما كسبته مصر من طيب الأحدوثة نتيجة لصبر أبنائها وحسن بلائهم .

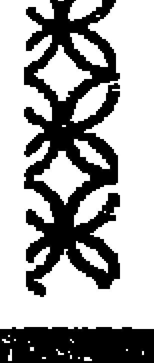
وكتابي اليوم لا علاقة له بتلك القصة الرسمية . وانما هو صفحات ضمنتها صورا وخطرات أوحت بها الى جولاتي في أنحاء المحيط الهندي ، وحياتي على ظهر السفينة . دون ادعاء أو حذلقة فنية . بسيط العبارة يسرد الحوادث ويصف بعض المناظر لا لقيمة خاصة بها ، بل تبعا لما أثارته في نفسي من احساس ، وفي ذهني من

تفكير . فكانت للسفينة ورجالها وهرتها ((مشمشة)) قيمة تعادل معبد ((رامشيفارام)) وصخرة ((ماهابالى پورام)) . واتخذ شعورى بزيارة منفى الزعيم فى المحيط الهندى أهمية أكثر من وصف جزر سيشل ذاتها . وكان الخروف المذبوح فى جنح الليل ، والراقصة البربرية ، وابنة البنجاب ، وقردة محطة ((مادورا)) ، ونفاق الهر المتقشف ، سواء بسواء عندى وعمارة المعابد الهندية . وتعاليم البوذا ، ووصف الشعاب المرجانية ، وعادة الدفن عند المجوس . كما كانت الشرارة التى ألهبت قلبى يوم لقاء الغادة الزمردية فى ((مومباسا)) أقوى من كل ما شعرت به امام شجرة ((البودى)) المقدسة ، أو بين ركام المدينة المدفونة ((آنورادا پورا)) . كل هذا دون وحدة فنية مرسومة مقدما ، ودون تعمل أو افتعال . فلاتوجد فى تلك الفترة من حياتى وحدة فنية أكثر من وحدة السفينة وركابها . ولقد أرسلت القلم لأحدث أصدقائى بما رآه بصرى أو ادركته بصيرتى . ولعلهم فاهمون بعد هذا سر الجاذبية التى وجهت حياتى فى طريق لا يزال يستخرج منهم على ممر السنين بعض الدهشة .

لذا أرجو القارىء ألا يحاول تحميل هذه الصحائف أكثر مما تحتمل . وأن يتقبلها على علاتها صورة من نفس صاحبها يقدمها الى أصدقائه ومعارفه . فاذا استطعت أن اصطحبه وأصطحبهم فى رحلتى الفكرية ، وأخفف عنه وعنهم ملل الساعات الطويلة ، كما استطعت ان اسكن آلام رفقائى بالسفينة ، فقد نجحت فى اطيب المهمات الى نفسى : ان ارتاد مع اصدقائى عالما يشعرون فيه بشعورى .

الأسكندرية فى أكتوبر سنة ١٩٣٧

إلى أصدقائي



عبث

مَانجوپير

على قيد عشرة كيلو مترات من كراتشى عاصمة السند مزار اسلامى لولى اسمه ما نجوپير . حول مقامه ينابيع ماء بارد وساخن، وبركة يعيش فى مياهها أكثر من مائة تمساح ، وقد أحيطت بسور يطل منه الزائر على تلك الزواحف المفزعة وهى ممدة على شاطىء البركة كأنها جذوع أشجار متحجرة ، لا تتحرك الا حين تلقى اليها النذور من الأغنام المذبوحة . ومن حسن حظى أن لم أر يوم زيارتى نذرا ولا ناذرا .

ويقال بأن ما نجوپير كان فقيرا هندوسيا (سيادهو) ، ولا سبيل الى معرفة حقيقة أمر هذا الشيخ وسط الخرافات التى حيكت حوله ، فالانسانية الدنيا التى تعمه فى ظلام الجهالة تحيط حتى الديانات السامية بخرافات تكاد تلقى اليأس فى نفوس الانسانية العليا التى تسعى أبدا الى الأخذ بيد البشرية .

وتتنازع الشيخ مانجوپير خرافتان :

الأولى : أن أصل هذه التماسيح عائلة رجل شرير استولى على أموال اليتامى والأيامى الى آخر ما هنالك من ضروب الشرور التى يظهر أنها كانت تلقى فى العصور الخالية عقوبات أشد صرامة مما نعرف فى عصورنا المادية . وجاء الشيخ مانجوپير فدعا على المعتدى وأسرته أن يتحولوا الى تماسيح ، وقد كان له ما أراد .

ويظهر أن فكرة التناسخ ـ محور العقائد الهندية ـ من أقدم العقائد البشرية . ولا أحسب شعبا لم يعتقد بهـا فى حقبـة من تاريخه . وأساس أغلب الديانات الفطرية عبادة حيوانات أو جمادات يعتقد عبادها أن قد تقمصت فيها أرواح طيبة أو شريرة .

وفى مصر آثار من العقائد الفطرية احتفظ بها الشـعب رغم الديانات الكبرى التى اعتنقها .

فهذه أشجار مقدسة (كالمندورة) ، وأبواب مبروكة (كبوابة المتولى) ، لا يزال يؤمها الشعب كما نذهب الى ڤيشى ومارينباد ، اذ يعتقدون فيها البرء من كل داء أو بأساء وقد تحاول الحكومـة أو أصحاب الأرض قطع الشجرة فيتحدث اليك محاسيبها بالحلم الذى أقض مضجع مأمور القسم ، أو كيف صرخت الشجرة ثم شخرت والمنشار يحز فيها ، وكيف شوهد الدم ينزف من جذعها المقطوع .

ثم من لا يذكر خرافة أصل القرد ؟ حكاية المرأة الشريرة أمام الفرن ، واعتدائها على حرمة الخبز باستعماله لغير الغرض الذى خبز لأجله .

ليست فكرة التناسخ والتقمص اذن غريبة عن البشرية انما الغريب بقاؤها بمثل القوة التى هى عليها فى معتقدات الهنود .

أما الخرافة الثانية عن ما نجوپير فهى :

كانوا أربعة من الأولياء : : ما نجوپير ، كالاندار لال شاه‌باز ، الشيخ فريد ، بهاء الحق ، اجتمعوا يوما ليتنافسوا فى الكرامات .

ضرب مانجوپير الأرض فتفجرت عين ماء بارد .

وضربها شاه باز فتفجرت عين ماء ساخن .

ولما أن وجد الشيخ فريد باب الاجتهاد فى ضرب باطن الأرض قد أقفل . اخرج مشطا وجعل يمشط شعره ، فكان القمل المتساقط منه يتحول الها تماسيح بمجرد نزوله فى مياه عين الشيخ مانجوپير

أما الشيخ بهاء الحق فحين رأى باب الاجتهاد قد اقفل اطلاقا ، أخرج من عبه حفنة من نوى البلح ... وجعل يزرعها فى الأرض بكل بساطة وهدوء .

ومع أن هذا الشيخ يذكرنى قسرا بالبلياتشو حين يخرج عقب البلهوانات البارعة ليدخن سيجارا أو يستلقى على قفاه الا اننى احترمت الشيخ بهاء الحق أجل احترام . فكانه يقول (ويختص بالقـــول زميله القمل الذى حـــول صئبانه تماسيح) : أيا كانت كرامتكم أيها الزملاء فهى لا تعدل قدرته تعـــالى ولا حكمته حين يخرج من هذه النواة نخيلا يحمل للأجيال القادمة رطبا شهيا .

وانى لاشارك سيدى بهاء الحق هذا التفكير العالى ، ولو ان طبعى الحاد يودنى أن التفت الى شيخ القمل واقول له :

ـ اتفخس عليك ولى .

الـــريــكـشـــو

الفيتون عربة صغيرة تسير على عجلتين يجرها حصـــان ، والريكشو فيتون صغير يجره انسان ، ولا أدرى ان كانت شفقتى على انسان الريكشو ناشئة عن آدميته انحطت الى مقام الدابة ، أم هى لأنه وقد دخل فى عداد الأنعام نال من نفسى ذلك الحنان البالغ الذى أخصص به العجماوات . وحكايتى اليوم تجعلنى أميل الى الرأى الأخير .

المنظر شوارع كولومبو عاصمة سيلان ، وقد ركبت الريكشو وطلبت من صاحبه أن يجرنى الى سينما فى طرف من المدينة ، وان يسرع فى عدوه حتى لا تفوتنى الحفلة الماتينيه والفيلم هو « دون كيشوت » يمثله شاليابين ، ووقتى فى كولومبو لا يحتمل اضاعة ليال كثيرة فى السينما . وحفلة السواريه عندى هى والفت وشوربة العدس بالبصل سيان فى أنهما نوع من البنج لا قومـة لى منه الا فى الصباح .

ولكن صاحب الريكشو هو فى نفس الوقت حماره وســائقه ، وبصفته الأخيرة تشترك مع الشوفيرات والعربجية فى اســـتكراد الغرباء . فدار بى دورة تنبهت بعدها الى عبثه فغضبت وصرخت فيه الا يحيد عن طريقى الى السينما . ويظهر ان خلقة حمـــارى الآدمى مثلثة ، فهو فوق أنه انسان ودابة عفـــريت من الجن ، اذ

استطاع ــ ويخيل لى أنه فعل هذا فى لمح البصر ــ أن ينقلنى الى اقصى المدينة فى الطرف الآخر منها حيث لا يوجد السينما ، فصرخت أستحثه . ولصوتى أثر عجيب فى نفسى وهو أنه اذا صدر فضبان ضاعف من حنقى فأصرخ من جديد بمقدار غضبى المضاعف . وهكذا حتى تجحظ عيناى ويكاد يقفز قلبى من حلقى لولا اختناق هذا الأخير تحت تأثير الحنق البالغ . . ورأى حمارى الآدمى ذلك فقال فى نفسه « داما بيهزرش » وانطلق يعدو وقد فكر أخيرا أن ينهب الأرض بدل أن ينهب جيبى . ولكنه رجل قارب الكهولة . وأصحاب الريكشو كهولتهم شيخوخة وشبابهم كهولة . وهو نحيف التكوين ضعيف البنية مصاب بالربو أو ما اليه ، فيا لمصيبتى فيه ! وهنا نسيت الآدمى وذكرت مطلع قصيدتى التى قلتها فى الرفق بالحيوان اثناء التلمذة (وارجو أن يطمئن القارىء الى أن شعرى مستقر فى قرافة المجاورين منذ الحداثة فلا خطر عليه منه !) فنالتنى الشفقة بالمنحوس الذى قضى عليه سوء الطالع أن يجرنى الى السينما فى ذلك اليوم .

ولما كان من عادتى أن أعبر عن مشاعرى نحو الحيوانات بصوت عال فقد خاطبته قائلا « أيها الحيوان ، ماذا غرر بك لتضيع وقتى هكذا ! » ثم أذكر ان حفلة الماتينيه قد بدأت وأنه السبب فى ضياعها على ، وأن أضاعته لها متعمدة . وهنا يعود امامى انسانا غشاشا نصابا فأصرخ « أسرع أيها الحمار ، أسرع أيها الكلب الحقير ! » فتقع كلماتى على سمعه كأنها السياط تلهب ظهره فيندفع ساعلا ، ويخيل الى أنه لا بد واقع أعياء بين عريشى فيتونة ، وربما أسلم الروح فى بهرة أضواء باب السينما ، ولن أغفر لنفسى وفاة هذا الانسان التاعس الذى لا يشارك البهائم فى زرائبها ومأكلها ومشربها فحسب ، بل فى صناعتها ، فأقول « خفف من سرعتك أيها اللص . فوت على ميعاد السينما ، فما فائدة لهثك ؟ » ثم أذكر أننى مصمم على دخول الماتينيه ولو متأخرا ، فخير لى أن أرى بعض

الرواية مفتح العينين من أن أراها كاملة وأنا فى غفوة تعد السابعة فى ترتيب النوم ، فأعود الى الصياح واضرب أرض الريكشو بقدمى، ولاتلبث عيناى ان تشرفا على الخروج من محجريهما وينطلق المسكين لاهثا ساعلا باصقا لاعنا بلغته السنجالية . وقد ذكرنى لغطه بلغته اننى لم أشتمه الا باللغة الانجليزية . واذا كنت قد القيت على سمعه أقبح ألفاظها — وهى شتائم تعلمتها من البحارة الانجليز ولم أجد لها ترجمة محترمة لأثبتها هنا — فقد نسيت أن هناك كنزا من الشتائم فى لغتى لم أنتفع به بعد لذا انطلقت أكيل لهذا السنجالى نقاوة شتائمنا المصرية الأصيلة وقد وصلت الى حالة ذريعة من الحنق نفخت فى زمارة روحى حتى أشرفت على الانفجار . وما كان أعظم دهشتى اذ كان لألفاظ السباب المصرية فى فمى وقع البلسم على نفسى . واذا بزمارة روحى وقد سمع لها صوت يقول «قس» وكأن تفجيرى باللغة المصرية وخز ابرة فيها الراحة والبرء .

وضحكت من غضبى الفارغ ، وسخرت من شالييين ودون كيشوته ، وضاعفت لحيوانى النصاب أجره تاركا اياه فى موضع ما . ونزلت أتريض واعجب بلازوردية السماء فى سيلان ، حتى انتهى بى المطاف الى بائع شراب النارجيل ، فجلست أحتسى ذلك الشراب العلوى يقدمه لى الساقى فى نارجيلة طازجة أعمل فيها بسكينة حتى فتح بقشرتها ثقبا يسيل منه شرابها كأنه لعاب العذارى اليافعات .

وشاهدت الفيلم فى حفلة السواريه . وفى قولى شاهدت كثيرا من التساهل أغتفره لنفسى اذ لا أجد كلمة تعبر بالضبط عما اريد. فاذا أنا قلت استولى على النعاس اخطأت التعبير لأنى أذكر جيدا انى كنت قائما فى جلستى مبحلقا فى الستار الفضى ، وانى رأيت طواحين هواء وعمالقة ، وسانكوبانثا ودولسينيه ديلتوبوزو . الا أنى لست متأكدا من رؤيتى كل هذا فى السينما أو هى الصور

العالقة فى ذاكرتى من كتاب سرفانتيس الخالد قراته لبضع سنوات خلت . من يدرى ؟ ربما كنت احلم يقظا فانا على يقين من أننى لم ار دون كيشوت راكبا فرسه روسنانت ، وانما رأيتـــــه يركب ريكشو يجرها رجل كهل عجاف يسعل ويبصق ويلهث ويلعن باللغة السنجالية فيرد عليه فارس دى لامانشا بأنقى وأصفى شـــــتائم الحسينية ودرب عجور .

القِـرَدة الخطافـة

قال صاحبى الهندى المسيحى وقد ركبنا القطار فى « مادورا » بجنوب الهند ، بعد زيارة معبدها الكبير المكرس للالهة «ميناكشى» ذات عيون السمكة والنهود الثلاثة : « جهزت لك غذاء اسلاميا تتناوله فى القطار على الطريقة الهندية ، فقد خشيت أن يدنسك غذاء غير اسلامى فى عربات الأكل » . وشرع قبل قيام القطار فى فك بقجة كبيرة احتوت أنواعا من الأرز والكرى لا عداد لها ، اختلطت بلحوم لا شكل لها ضمخت بالتوابل ، وقدم لى صحافا من ... أوراق الموز .

اخذت موضعى من العربة واعملت أصابعى الخمس فى هذه اللبخة الهندية التى هى غذاء اسلامى . ونية صاحبى الهندى المسيحى حسنة ، فالمسلم فى الهند لا يقرب أكل الهندوسى ... ولا المسيحى والعكس بالعكس . وكان من الطبيعى أن يأمن جانب اعتراضى الدينى حين يقدم لى هذه الأكلة الاسلامية ولكنه حين علم بأن المسلمين فى غير الهند لا يحيطون انفسهم بهذه الحرمات التى لا معنى لها ، وأن كل ما يتجنبونه على الأكثر هو لحم الخنزير ، وعدنى بأكلة براهمانية فى محط رحالنا التالى .

وبينما يتأهب القطار للمسير ــ واذا تأهب القطار للمسير فى جنوب الهند فمعنى هذا أن هناك عطلا فى الخط ، وأن القطار قد

لا يتحرك قبل ساعة أو بعض ساعة ــ اندفع جمع من القردة نحو النوافذ ويمموا شطر غذائنا الشهى . واذا ما لاحظنـــا الشراهة المشرقة فى عيون هذه القردة فاننا نحكم توا بأنها قرود غير هندوسية، والا عافت نفوسها أكلتنا الاسلامية . وقام صاحبى يطاردها وقمت خلفه لأعرف من أين جاءت ؛ فهى أول قردة أراها فى بلاد القرود .
ولما كنا قد اعتدنا أن نرى القرد تابعا لصاحبه ، فقد اشتقت أن ارى القرداتى الغنى الذى يحكم على قطيع من القردة يرسله فى أثر الآكلين بدل أن يعلم أفراده « توم العجوزة ازاى » أو « بوس ايد سيدك يا ولد » و « فين عروستك يا ميمون » .

وما ان اندفعت الى النافـــذة فى أثر صـــاحبى حتى كان أفراد من القطيع قد اندفعوا من نوافذ الناحية الأخرى وانقضــوا على سباطة الموز الذى يمثل فاكهتنا الوحيدة فاختطفوها ، وعدنا نهوش ونلوح بأيدينا ولكن بعد فوات الوقت ، فقد كان أفراد القطيع اقتسموا اصابع الموز ، وذهب كل منهم فى سبيله يحمل اصـــبعه ليقشره ويتبلغ به على مرأى منا فوق رصيف المحطة .

ولم يكن هناك قرداتى ، وانما فهمت من صاحبى الهندى انها منصر من القردة تسطو فى المحطات هذا السطو المنظم ، فيشـــاغل فريق منها الآكل من ناحية حتى اذا ما قام يطاردها هجم الفــريق الآخر من الناخية الأخرى ، وحمل ما تصـــل اليه أياديه من الموز والجوز . وجعل صاحبى يعتذر لى آسفا على ما حدث . فأجبته ضاحكا بأننا ندفع للقرداتى فى بلادى مقدار ما تساويه سباطة موز فى بلاده مقابل أن يعرض علينا قرده الوحيد ــ يصـــطحبه جحش ومعزة هما فى الأكثر كومبارس ــ الاعيب اقل طــرافة مما رأيت ، وبأنى أشكر هذه الفرصة التى أتاحت لى ــ فى مقابل سباطة الموز ــ ان أشاهده « فصلا » بديعا من هؤلاء القرود يفضـــل عندى كل شقلبات قرود القاهرة ، وكل تقليد «نوم العجوز» و «نوم العروسة» فهذه فى مجموعها دروس محفوظة عن ظهر قلب . أما أن يتـــآمر

قردة محطة مادورا على زائر مصري يرافقه مضيفه الهندي ويدعوه الى مأدبة اسلامية في صحاف من أوراق الموز ، ويصيبوا هـذا النجاح الباهر ، فهو آخر ما كنت أنتظره من أصدقائي الحيوانات. ولا شك عندي بأنه لو كان لها في محافظنا ـ لا في موزنا ـ مآربه ، لاستطاعت أن تشرط جيوبنا كأمهر نشالي العتبة الخضراء بالقاهرة واني بعد أتساءل عما اذا كانت هذه القردة في دخـولها محطـة « مادورا » قد قطعت تذاكر مقابلة ، أو أنها حاصلة من ناظر المحطة على ترخيص بائع سريح . بل وأريدك أن تتأكد من أنها غير تابعـة لبوفيه المحطة سلطها صاحب امتيازه على الركاب الذين يرفضـون التعامل معه ، ويحملون غذاءهم من المدينة أو من منازلهم .

ثم رفعت قبعتي تحية للقردة ، وتمنيت لها أتم النجاح في مهمة ادخلت على قلبي السرور في يوم شديد القيظ بجنوب الهنـد ، وانستني كل العناء الذي لاقيته في ازدراد الأكلة الاسـلامية التي قدمها لي مضيفي .

الريّس أحمد

لو أن فى وظائف البحرية العسكرية وظيفة فتوة «الدريد نوت» لكان الريس أحمد أول مرشح لها . ولو أنه ـ لا قدر الله ـ فقد مركزه فى بحرية الدولة ذات يوم فانى أرشحه لوظيفة عتال فى الجمرك ، أو أجلسه على عرش أوليمبى فى بلاد الرباعين ، أو أعرضه فى الموالد لابسا « ريدى » عليه هلال ونجمة ، تحيط به شتى الأثقال احاطة الهالة بالقمر .

لم يكن يحب الحياة الشاقة الفذة التى نحياها على ظهر السفينة منذ شهور بين السماء والماء ـ ومن منا أحبها ؟ ـ ولكنه احتملها كما احتملناها جميعا . أما ماناه بحمله واحتماله فهو الريس عبد الله ، الرجل القصير الذى جمع بين مكر الثعلب وخفة القردة ، والذى كان يكرهه جميع البحارة لا لعلة الا انه رئيسهم المباشر . وكره البحارة عاطفة زمنية مكانية ، فهى رهينة بالسفينة وبالسفينة فى عرض البحر . أما اذا رست هذه وخرج رجالها الى البر فان عاطفة الكره تهرب الى عرض البحر أمام حاجز الأمواج وتترقب خروج السفينة من الميناء لتحط بين رجالها . وهى فى هذا تشبه مجموعة من المشاعر تستولى على راكبى البحار وتختفى عند اقتراب الشاطىء . والبحارة فى هذا يشاركون المساجين والأسرى وكل من تقضى الظروف بأن يحشدوا سويا فى صعيد واحد بعض الزمن .

أصيب الريس احمد بالملاريا فى عرض البحر ، وكلما ذهبت لأعوده شكا لى الريس عبد الله أكثر مما يشكو الصداع والحرارة والرعدة . ومع أنى لم آخذ شكواه على محمل الجد مرة لكثرة اعتيادى عليها . ولأنى قيدتها على حساب العواطف الزمنية المكانية الخاصة بعرض البحر ، الا أن اصراره عليها واهتمامه ببثها أكثر من الكلام عن مرضه ، جعلنى أفقد بعض صبرى . ولما كانت اعمالى كثيرة متعددة النواحى على ظهر السفينة ، فقد تركت للريس احمد كل جرعاته من الكينا عن يوم كامل توقعت فيه عدم امكانى الذهاب الى عنبر رؤساء البحرية قبل الهزيع الأول من الليل وتركته وهو يلحف بالرجاء أن أجد له علاجا يريحه من الريس عبد الله أكثر مما يريحه من الملاريا .

وبعد العشاء ذهبت لأعود مريضى فألفيته فاقد النطق ، ولكنه كان محتفظا بقواه العقلية ... وربما الجسمانية أيضا ، واذا كان قد فقد من هذه ما يعادل قوة أربعة رجال فقد بقى له منها ما قد يقل قليلا عن قوة ستة رجال . وأشار الى بما يعنى أن فى رأسه آلافا من الطواحين ، لها دوى وهزيم ، ووش عظيم ، فبادرته بالسؤال عن عدد ما تناول من حبات الكينا فأشار الى بأنه ابتلعها كلها مرة واحدة . وهنا لم أتمالك من تذكر حكاية الصعيدى الذى قرش شربة الملح الانجليزى او السلوفات . واذ كانت حالته غير خطيرة فقد امكننى أن أصرخ فى أذنه — وقد أصمت سمعه الكينا مؤقتا — اهو ربنا حايريحك من الريس عبد الله .. ويريحنى منك يا ريس أحمد .

عبد الغنى

أغلب بحارة هذه السفينة « أولاد بلد » ولكنهم أحيطوا لسياج العسكرى والبسوا نظامه ، فاتخذوا طابع الجندية وفقدوا كثيرا من صفات ابن البلد . أما عبد الغنى فهو نجار « ملكى » استخدمته البعثة فى السفينة قبل سفرها . فاذا قسمت ركابها الى فريق عسكرى خاص بالملاحة والآلات ، وفريق « ملكى » خاص بالكشف العلمى ، فأنت مضطر أن تجعل من عبد الغنى فريقا وحده ، فهو نشاز صارخ على ظهر الباخرة . ومع أننا نلبس جميعا فى عرض البحر أسمالا تسبغ علينا سيماء قطاع الطرق أو قرصان البحار . الا انه يسهل تمييز عبد الغنى من رجال البحرية حتى تحت هذه الأسمال . فمشيته وحركاته ، وطريقة كلامه وتلقيه الأوامر وتنفيذها ، تنم على أننا حيال « صاحب صنعة وابن كيف » . ثم هو لا يكاد يتحرك على ظهر السفينة الا حاملا منشاره أو قدومه ، أما فى « وقت الراحة » فان جلسته وطريقة تدخينه تفضحان أمره لكل ذى عينين . فليست هذه جلسة بحار عسكرى أو وقاد فى « الراحة » ، بل هذه ليست جلسة رجل من رجال البحر . وانما يحول لك عبد الغنى كل شىء حوله الى قهوة بلدى ، بجلسته وحديثه واشاراته وطريقة تدخينه .

ومع هذا فقد انتهى عبد الغنى الى اقتناء بدلة وقميص أفرنجى ليلبسهما بدل « الساكو » والجلابية . ولكنه لسبب لا أفهمه

ـ وهو مصدر عجبى الدائم كلما رأيت حدوثه فى مثل هذه الحالة ـ اهمل أن يشترى الياقة والبمباغ .

ان أمر اهمال الياقة والبمباغ عند عبد الغنى وأمثاله ، ربما كان قائما على نفس الأسس البسيكولوجية التى تجعلنا نصر على لبس الطربوس . فهذا عبد الغنى قد اضطر بحكم الوسط الذى أحاط به على ظهر السفينة ـ وخصوصا حينما يخرج واياهم الى البر فى الموانى ، وهم مضطرون هناك الى الاحتفاظ بلباسهم العسكرى ـ الى لبس الملابس الأفرنجية . ولكن فى نفسه بقية احتجاج على هذا ، وبقية تمسك بعاداته و « قوميته » المحلية . ومجرد اهماله الياقة والكرافتة تجعل المثلث الظاهر من القميص خارج الصديرى ، وأزراره البادية ، وأكمامه الخارجة من أكمام الجاكتة لا تضمهما أزرار قميص ، رمزا على « القومية » المحلية ، وعلى أن عبد الغنى ـ برغم كل شيء ـ رجل ابن بلد وابن كار وليس « أفندى » .

كذلك نحن والطربوش ... نلبس الملابس الأوروبية ونحاول أن نرقى الى مستوى الحياة الأوروبية . ولكننا ـ لا تنس من فضلك ! ـ مصريون فوق كل شيء .

كأن القومية رهن بأصص الزرع المقلوبة فوق الرؤوس .

علـى حـمـد

اذا قلبت الأوضاع نتيجة زلزال ادبى يجعل من أعالى هـذه البعثه سافلها ، فان على حمد يصبح رئيسا للبعثة بحكم هـذا الانقلاب . ولست أدرك الخدمة العلمية والانسـانية التى كانت تؤديها فى هذه الحالة ، ولكنى على يقين من أنها كانت تصبح أكثـر جدلا ومرحا . وعلى حمد بوضعه الطبيعى فيها ــ ولم يكن من بنى انف ناقتها ــ كان بؤرة السرور ومدار الضحك فى السفينة . وفى الحق أنه شخصية فذة تعد فى نظرى اقصى ما يطمح اليه فى تمثيله بربرى مصر الوحيد . وعلى حمد فوق هذا سفرجى من الطبقـة الأولى ولو أنه مقيد فى الدفاتر على الدرجة الثالثة . وهو الوحيد من اربعين لم أسـمعه يبثنى شكوى مدى التسعة أشهر التى قضيناها فى عرض البحر . ولو أن فى صوته وصـوصة الشاكى الدائم ، والمحتج عـلى كل شىء . فاذا ما صرخ فيه الكوماندور ضابط الملاحة ليحضر زجاجة الـ "gin" والمـاء المثلج ، سمعناه من « خمارتنا » بأسفل السفينة وهـو يصعد سلمها الى الكويرتة محتجا « ايه دى ! كمان الجن فى المركب » ولكنه يعود الينا سريعا يتقدمه صواؤه ولم ينس زجاجة ولا كوبا . وعلى حمد ينطق الجيم فى اسم هذا الشراب بلا تعطيش ، ولعله فى نفسه اقام علاقة بين اثر الشراب علينا وبين اخواننا اللهم اجعل كلامنـا خفيف عليهم » . وقد نناقشه فى سر وصوصته عند ذكر هذا الشراب ، ونحـاول

أن نقنعه بأن الجن مهما لعب برأس شاربه فهو برد وسلام اذا قيس بالبوظة . وهنا تخرج زرابين على حمد ، وتلعب أطراف شواربه المدلاة على شفتوريه كأنها بقايا مكنسة عتيقة ، ويؤكد لنا فى لغة نصف مفهومة بأنه او استعاضت السفينة عن الفحم بالبوظة لزادت سرعتها بضع عقد ، ولو جعلنا منها شرابنا كل مســاء بدل الجن لأخرجت من أجسامنا كل داء ، وجعلتنا اقوى على تحمل المشاق وأسرع جذبا للشباك واقدر صيدا . وهنا لا نرى مناصا من سلوك سبيل المسالمة ، فنتفق وإياه على أن جميع المسكرات شراب الجن والأبالسة ، ونؤكد له بأن بعلزبول قد اصطفى البوظة يشرب منها كؤوسا دهاقا . وانها البوظة وبواخها فى رأسه جعلته ينتصب قائما أمام ابن الصلصالة ولسان حاله يقول « شارب البوظة من قرعتها لا يسجد لشارب المـاء حتى ولو سلسبيل » .

وعلى حمد رجل نظام بمعنى الكلمة . فهو لا يهاب على السفينة سوى رجل واحد : القومندان الاسكتلندى . فحينما يبدو لهذا الأخير أثناء تفتيشه الأسبوعى تقصير فى خدمة على حمد ، يصرخ فى وجهه « آلى هاماد ! » ويزغر له بعينيه الرماديتين ، ويرفع سبابته فى اتجاهه . وهنا تتراخى مفاصل على حمد ـ ولعل تفسير هذا التراخى فى نفسه هو بعد عهده بشرب البوظة ـ ويتخذ وجهه سيما البلاهة . واذ يلتقى نظرى بنظر القومندان ، يكتم كل منا ضحكه ، متواعدين أن نضحك فى وقت آخر من هذا الساذج الذى أضفى على السفينة المكدودة روح المرح ، والذى أصبح لازما لنا كالشمس والهواء والبحر والخمر .

فاذا ما خلوت بعلى حمد عقب التفتيش ، وكررت له تحذير القومندان وأنا ضاحك ، أجابنى وهو يصوصو كالفأر ، فيطل عليه الكوماندور ضابط الملاحة من أعلى الممشى ويجأر « شـــاتب آلى هاماداو ألقيك فى اليم » فلا يزيده هذا الا صواء .

كلفني علي حمد أن أرسل له نقودا من كراتشي الى قريتـــه في فيافي السودان ، وكان من المستحيل عليه وهو لا يتكلم الانجليزية ان يقوم بذلك ، ولم يكن من السهل علي ــ وأنا أتكلم الانجليزية ــ ان أؤدي له هذه الخدمة بسبب غباء موظف البريد ــ ويقينـا أن نماذج الذكاء الهندي معدومة في الوظائف الصغيرة ، والفضـل في ذلك للامة الحاكمة التي لا تقيم وزنا كبيرا لـما اصطلحنا عليه في حوض البحر الأبيض المتوسط بكلمة النباهة ــ ولأن قرية علي حمد لم يرد لها ذكر في سجلات البريد . وعدت الى السفينة ــ أو المركب بضم الميم كما ينطق بها علي حمد ــ اسأل صاحب النقود عن أقرب مركز ، وعن اسم المديرية التي أنجبته . وقد دهش علي حمد الا يعرف الخافقان بخبر قريته العامرة ، وكان يحسب أن مراجـع البريد لا تنص على قريته فحسب بل على نخلتيه وبيته الذي أرسل النقود خصيصا لاصلاح سقفه المتداعي وشراء نخلة ثالثة تطل عليه ــ أو يطل عليها .

ثم مضت الأيام فالشهور وعلي حمد لا يتلقى خبرا عن وصول نقوده . واخيرا وصل مع بريد السفينة في أحـد الموانى خطـاب عنـــوانه :

« يوصل ويسلم ليد ابن عمنا المعزوز علي حمد الهمام بالمركب ... بالمحيط الهندي في خير وسلام » .

وكان وصول هذا الخطاب الى سفينتنا أعجوبة الأعاجيب ، وشهادة للبريد الهندي بالدقة ، ولبريطانيا بصدق حكمها اذ لاتعتبر النباهة شرطا من شروط الكفاية في تأدية الأعمال العامة .

واطمأن علي حمد الى وصول نقوده واعتزام أهله شراء النخلة واصلاح سقف المنزل العامر . ولكن البحارة أولاد عفاريت ، وعلي حمد لا يعرف القراءة ، وقد افهموه واشاعوا فيما بينهم ــ حتى لقد بلغتنا الاشاعة نحن الدين نسكن خلف الصاري الكبير ــ بأن الخطاب كان معنونا هكذا :

« يسلم ليد على حمد بالمحيط الهندى » .

وهذا آخر ما كان سفرجينا الطروب ينتظره . فقد كان يرى من الطبيعى أن تتحلى دلائل البريد باسم قريته وكوخه ونخلتيه . أما أن يكتب له ابن عمه بعنوان « على حمد بالمحيط الهنــــدى » ويصله الخطاب ، فهذا أقوى مما يحتمله تفكيره . ومهما كان جهل على حمد بالجغرافيا ، فقد شهد بعينيه ترامى أطراف ذلك المحيط ونزل بالبلدان القائمة على شواطئه ، وسمع فيها اللغات الغريبة ، وعرف بأمر الأديان المتعددة ، فكيف يمكن للبريد أن يستدل عليه هو « على حمد » وسط ذلك المحيط ، وللخطاب أن يتعقبـــه من ميناء الى ميناء حتى يدركه . وقد جاءنى يستفسرنى جليــة الخبر فقلت له :

ــ شوف يا على حمد ، أنت دلوقت راجل مشهور وكل الناس فى البوستة تعرف أن فيه مركب اســـمه .. بيشتغل فى المحيط الهندى ، وأن عليه سفرجى اسمه على حمد . وادينى أهـــوه أن ما كانش الناس ياخدوك ممثل فى السينما بعد ما ترجع مصر بس لازم يقصقصوا شنبك شويه علشان تبقى عليك القيمة .

فأجابنى :

ــ يا سلام يافندى ! ليه ياهدونى فى السينما ويقصوا شنبى كمان ، هو أنا مسهره ؟

وقد أدرك على حمد انى أداعبه ، ولكنه لم يفهم بعد كيف وصله الخطاب بعنوان المحيط الهندى ، ومن يدرى كيف يقص عـــلى مواطنيه فى الاسكندرية قصة وصول الكتاب اليه . فربما لعبت البوظة برأسه فقال مفاخرا :

ــ دا الجواب جا من السودان مكتوب اليه بس « الى هنمد » ما فيش كلام . أما أجايب والله ياناس !

مشمشة

كلما ابتنى الانسان لنفسه سفينة أقيانوسية كبــرى دارت بخلدى مقارنة عقيمة بين سفينة نوح وبينها . عقيمــة لأن كل ما نعرفه عن سفينة نوح أنها صنعت من خشب ، بينما نعــرف عن جبابرة البحار فى عصرنا كل شيء . فمعرفتنا بســفينة نوح أقل قليلا من معرفة آبائنا وأجدادنا بزوجاتهم قبل العرس . فقد كانوا ـ الى أنهن من لحم ودم ـ يسمعون مثلا بأن وجوههن كالقمر ولونهن شيء بين لون القمح والقشدة ومعرفتنا بالسفائن الأقيانوسية اليوم أكثر قليلا من معرفتنا بعرائس هوليوود طولا وعرضا ووزنا وحركة وسرعة . ولولا أن شركات الملاحة تطلعنا عــلى الدقائق المستترة لعمالقة البحار لتساوى علمنا بنجــوم لوس انجيليس والبواخر الكبرى .

ولم أصل فى مقارنتى الى نتيجة حتى الآن . فانى بين ان اجعل من سفينة نوح مركبا فى حجم المراكب التى تنقل البطيخ بين البرلس والاسكندرية ، أو فى حجم السكونيات التى تحمل تجارة بسـيطة بين بر الشام ومصر ، وبين ان أتخيل « النورماندى » و « الكوين مارى » الى جانبها فلايك نجاة ليس غير . فاذا أدت معارفى الايجابية الى استحالة تصور سفينة نوح بهذه الضخامة ـ اذ أن صـناعة السفن فى عهد أبى يافث كانت ولا شك فى مهدها ـ فان عقـائدى الراسخة ، وايمانى الذى لا ريبة فيه ، تقض مضجعى حين تصورنى

واقفا بأسكلة قوم نوح أتناول جوازات سفر المؤمنين والمؤمنات ، وأتسلم شهادات النولون عن كل زوج من دواب الأرض وهوامها ، وطيور السماء ، ووحوش البرية . ويتواضع خيالي فأتصورها مائة ضعف ما يملأ حديقة الحيوانات بالجيزة فأقع في مأزق لا مخرج منه ألا أن تكون سفينة نوح أكبر من كل ما أنشأته وتنشئه يد الانسان الذى نعرفه اليوم قصير العمر والهامة ، الى جانب أقوام كانت تذرع قاماتهم بالمائة والألف ، وتبكى النادبات شبابهم المقصوف حين تقبض أرواحهم فى سن العشرين بعد الثلاثمائة .

وقد لازمتنى هذه المقارنة الجوفاء ملازمة سمجة حتى ركبت الباخرة العلمية الصغيرة التى انطلقت بى فى غير وعى شطر المحيط الهندى ، تحمل جماعة مختلطة من عشيرة بريطانوس وأفخاذ مصرايم اعتزموا أن يركبوا الطوفان قبل أن يركبهم .

واذا احتوت السفينة أربعين منا ، مع أن طولها لا يتعدى الأربعين مترا ، وتكدس على سطحها وفى بطونها زادنا وزوادنا ، والفحم والماء والزيت والشحم والثلج والشباك وآلات رصد البر والبحر والجو ، وزجاجات الخمر وصناديق الدخان وعلب السجائر والكتب والأوراق والأسلحة وأدوات الزينة والنظافة ، وملابس التشريفة وأسمال العمل وسترات المدينة ، ومئات البرطمانات والصناديق والأحواض والأجزاخانة وأدوات الجراحة ودمجانات الكحول والفورمالين ، أقول حينما احتوت سفينتنا كل هؤلاء وكل هذا آمنت بأن سفينة نوح لم تكن أكبر منها بكثير ، وأن السر فى صناعة الصانع وتدبير المدبر . فهؤلاء مهرة الخطاطين يعرضون لعيوننا المشدوهة حبة من الارز كتبوا عليها الفية من الألفيات أو سيرة من السير .

كانت باخرتنا العلمية نوعا من سفينة نوح . غير أنها لم تحتو من الانسان غير الذكور . أما من الصراصير والفيران والهوام فقد

يكفى أن ترى تزايد عددها يوما عن يوم لتعلم أنها لم تجىء الى مركبنا خالصة لوجه الكشف العلمى مثلنا ، متجردة متبتلة ولو الى حين. ولقد شاركتنا مأكلنا ومشربنا وفراشنا . فلم أر أصفق وجها من فيران هذه السفينة ، تجيئك ليلا لتعبر جسدك النائم عند الموضع الذى يروق لها ، مع تفضيل خاص لجبينك الوضـــاح ، وكأنها تحميك من شر النفاثات فى العقد ، وترقيك من حاسد اذا حسد .

اما صراصير هذه المركب فكانت سكيرة عربيدة ، أدمنت على شرب الفيرموت الايطالى الى درجة أوردتها مورد الردى حين وجدنا فى هذا الشراب خير مصيدة لها .

فاذا استثنينا الفيران والهوام والصراصير فى المركب باعتبـار انها كدود المش منه فيه ، واستثنينا رحلة من الرحلات اضطررنا فيها الى حمل عشرين رأسا حيا من غنم بربر ، وبضعة أزواج من الدجاج اليمنى ، نجد أن ركاب سفينتنا الأربعين كانوا كلهم ذكورا الا « مشمشمة » .

ومع أن مشمشة لم تكن الا قطة يمكن أن تضاف الى حساب الحيوانات السالفة الذكر ، الا أن شخصيتها الفذة . وخلقهـــا السيء القلب ، وحبنا جميعا لها ، واشتراكها فى نشاطنا العلمى ، ومشاطرتها لنا أفراحنا وأتراحنا وأمراضنا ، وحصولها على أكلها لا غدرا ولا قسرا ، بل اقتدارا وحقا من حقوقها تعدنا مضطرين الى ادائه ، وأخيرا قلة حيلتها فى صيد الفيران ، جعلت مشمشة واحدة منـــا .

ولم نختلف فى شأنها الا على أمر واحد ، هو اشتراكها فى نشاطنا العلمى . فقد لاحظنا أن مشمشة لا تقرب الأسماك التى تصيدها شباكنا . وقال العلماء منا : أنها تحترم بحوثنا ، وتعرف ما لهـــذه الأنواع الغريبة من قيمة علمية فلا تقربها . وقال الهازئون بعلمنا : بل هى تعاف نماذجكم العلمية . اذ تعرف بسليقتها أنها لا تسمن

ولا تغنى من جوع . فهى أسماك عجاف تعيش فى أعمـــاق البحر السحيقة . ولو لم نتلمسها بأيدينا لحسبناها أرواح أسماك تهيم فى هيولى خيالكم .

ولعل الحق فى جانب الساخرة . فقد راى الجميع مشمشة تتخلى عن وقارها العلمى فتموء وتموء ، وتدور حول الشباك لتسطو على ما بها ، وهكذا فى كل مرة ألقينا الشباك فى الأعماق القريبة ، وحصلنا على مثل الأسماك التى تتغذى بها .

واتخذت مشمشة محلا مختارا فى الليل او فى القيلولة برطوز البحرية . وهى فيه واضحة الميل نحو فراش واحد أو اثنـين من البحارة عنيا بها عناية خاصة . ومشمشة مخلوقة تعرف قـــدر نفسها . فليست من ذوى النفخة الكذابة ، ولا هى من أهل التواضع الى حد الذلة . فهى تتجسطن فى برطوز البحرية بنفس الكبـرياء الذى يحول بينها وبين أن تزج بنفسها فى قمراتنا خلف الصـارى الكبير ، مع ما تظهره لها من حب وما تمخضها من عطف . ولا أذكر انها جاءت ناحيتنا راضية الا فى فرصتين : الأولى حين الم بها مرض فحملها الضابط الأول الى لتعالج . وقد جاءنى مكفهر الوجه يقول « القطة عيانه يافندم » . وحينما لحظ أنى احتست فى فحصـها ـ ولا عهد لى بعلاج الهررة ـ أضاف مشجعا « موت قطة المركب فال وحش يا دكتور » . وكانت مشمشة مسجاة على مكتبى ترتجف بين الآونة والأخرى وقد سخنت أرنبة انفها وجفت . ومرت بذهنى سراعا ذكريات عهدنا الأول بهذه القطة : ولادتها على طوافة راسية عند السويس ، من أم عجم البحر عودها اذ تربت وسط ضباط بحريين كانوا يلقون بها يوميا فى اليم لتعود سابحة الى السفينة . ومرورنا بالسويس متجهين الى البحر الأحمر فالمحيط الهندى ، واهداء الضباط رفقاءهم هذه الهريرة وكانت فى لون الحناء خططت بالبيـاض .

أما الفرصة الثانية التى جاءت فيها مشمشة تجوس خلال قمراتنا فكانت عندما اوفت على البلوغ ، ودارت تملأ أرجاء السفينة مواء وهى مدفوعة بغريزة تتنبه فيها لأول مرة . وقد وجدت فى سلوكها هذا موضوعا لحديث على المائدة من تلك الأحاديث التى يتبرم بها اخواننا الانجليز :

ـ هذه الهرة أيها السادة تفضل عندى بنى الانسان ، وهى تذكرنى بأوضاعنا الاجتماعية التى تضطرنا الى كبت واحدة من اهم غرائزنا ، وأسوأ من كبتها الامعان فى تحقير مظاهرها حتى لننظر الى المرأة التى تعمل لها مخاصة نظرتنا الى المجرمين . هذه القطة التى تتأففون من موائها ليل نهار أشجع من ابن آدم . فهى حينما طلبت الأليف أعلنت ذلك على رؤوس الأشهاد بلا هوادة وفى غير خجل ولا وجل .

ويفتح حديثى هذا مجال معركة حامية تسدد الى فيها سهام الوقار البريطانى ، وأعامل كضحية من ضحايا « اباحية القارة » . فأمعن أنا فى استحقاقى لقب الاباحى . فاذا جمعتنا المائدة يوم خروجنا الى البحر بعد أيام قضيناها فى البر ، وجعل كل منهم يتكلم عن الكلوب الذى احتواه أثناءها ، وعن ماتش الكريكيت الذى شاهده ، أو لعبة التنس التى اشترك فيها ، انتظرت حتى أسأل : وانت أين اختفيت ؟ فأجيب : « كنت أتابع لعبتى المحبوبة : مطاردة الغوانى » حتى ولو كنت فى زيارة معبد « اليفانتا » ، أو « بركة التماسيح الى جانب ولى الله « مانجوبير » .

ومقام مشمشة معروف خارج برطوز البحارة . فهى بباب وجاقهم (مطبخهم) ساعة تسلم الطباخ اللحم من رئيس السفرجية أو ساعة تسلم كل منهم غذاءه . وهى مقنبرة فى أحضان « العم » على راس « الكبانة » منامة هذا الوقاد الفيلسوف فى حصة العصر . فاذا لم تجدها هنا أو هناك فتأمل على ظهر السفينة مواضع الخطر ،

لترى مشمشة تحت شبكة معلقة تزن نيفا وخمسمائة أقة . أو الى جانب سلك الآلات تسحبها السفينة على قاع البحر ، وانه لقادر اذا انقطع فجأة أن يقضم الرجل قضما . أو تحت ميزان الضغط الذى ينذر بخطر اشتباك الآلات بالقاع الصخرى . أو تحت « الكباش » الكبير يزن ألف كيلو جرام وترفعه الونشات لتعود به آمنا الى ظهر السفينة ، وهو محمل بخيرات قاع البحر من كل هردومة صخر زوجان . أو بين أرجل البحارة الأشداء يشتركون فى رفع الشباك من الماء فى اللحظة الأخيرة .

أى أن مشمشة مثل حى لمفاخر شعراء العرب الذين يدعون بأنك لا تلقاهم الا حيث يشتد الكر والطعان (كذا) وحيث ترخص النفس فى سوق المنايا (كذا) . واذا لم يقم لدينا دليل على صدق هذا الادعاء أكثر من أشعار فاقت حد الروعة فى البلاغة ، فانى قد رأيت بعينى راسى مشمشة تخوض وادى الردى بقلب ثابت ، وجنان غير واجف . وتنظف شواربها بلا اكتراث وسط حلقات شبكة على وشك أن ترسل الى عمق أربعة آلاف متر فى المحيط ، او تغفو قاعدة القرفصاء على شفا سفينة يلعب بها العباب لعبا .

وعادت مشمشة الى مصر ضمن من عادوا اليها بعد أن طوفت معهم تسعة أشهر فى طول المحيط الهندى وعرضه ، ونشرت صورتها على صفحات الجرائد فلم تزدها الشهرة خيلاء على خيلاء . ولم تزدها رؤية الأمصار ثروة أو خبرة . بل ولم تكنها هذه الحياة الرحل من انتقاء عريس صالح بين هررة سيلان أو قطط زنجبار أو سنانير الهند . عادت الى مسقط رأسها فى السويس عذراء ذهبية الشعر أوفت على سن الزواج ، وقد غادرتها طفلة فى لون الحناء .

الهر المتقشف

اسمه « داديكارنا » عاشت الاسامى . قدم الى من أعلى صخرة « ماها بالى بورام » التى نقش عليها الفنانون « كفارة أرجـــونا » وقيل بل مثلوا على سطحها الفيلدسبانى قصة نهر الكنج ينبع من السماء فى صورة الحيات « ناجا » . سأعود اليها فى وقت آخر . انما أنا الآن بصدد السيد السند « داديكارنا » . وهو سنور قيل عنه فى ملحمة « المهاباراتا » انه من « عباد شيفا » الصالحين وقد رأيت صورته البارزة على « ماها بالى بورام » فى حركة نساك الهند كأشد ما يكون عليه القط الورع . فهو واقف على طرف واحد من طرفيه الخلفيتين فى حركة الفقير الهندى يعذب جســـمه الزائل بوقوفه على رجل واحدة ، كما تفعل الصـــبية فى لعبة الحجلة . والتقشف الهندوسى يصطحبه تعذيب الجسد اما بالنـــوم على صفوف من أسنة مسامير قائمة ، أو على مصنع زجاج محطم ، أو بالجوع أشهرا ، أو أن يدفن الناسك نفسه تحت الثرى يتنفس من أنبوبة بيريسكوبيه (بيريبنوماتيكية) أو لا يتنفس ــ هو وشأنه ــ أو أن يقف خاشعا على أم راسه زرع بصل ، ضارعا الى الآلهـــة برجليه ممتدتين الى أعلى .

وقد تخير صاحبى « داديكارنا » وقفة لا شك بأنها أكثر ممـــا يطلب من هر أن يؤديه فى ناحية تعذيب الجسد . فلعبة الحجلة هى آخر ما يفكر به امهر السنانير البهلوانية . كما أنه انتقى من الأغذية

اقلها صلاحية لخؤولته وأسباطه : حبة واحـــدة من الأرز كانت وجبته اليومية الوحيدة . فلا عجب أن يصوره الحفار على صخرة « ماها بالى بورام » بادى الأضلاع ضامر البطن . حتى ليخيل الى انه قد يمر من خرم ابرة . أما عن سبب هذا العناء فى المآكل والمقام، فهو سر القداسة المودعة فى نفس هذا السنور التقى من بين الأتقياء كتبت لهم النيرفانا وقد وصلوا فى التناســـــخ الى أرقى الدرجات البرهمانية .

ذاع صيت القط « داديكارنا » وملأ الأسماع . فكان حــديث الجرذان فى كل صوب وحدب . وقد رأى شيوخ الجرذان فى هــذا القط علامة من علامات اقتراب الساعة . أما شبابهم فكانوا أقــل تفكيرا بالآخرة حين نزعوا عن قلوبهم الخوف من الهررة . وقد بلغ الأمر بالفأر منهم أن تلعب الخمر برأسه فيخرج من جحره ويعترض الطريق العام صائحا يلعن . . . احسن قط فى الحتة ! » .

وتبلغ مسامع السيد « داديكارنا » أمثال هذه الاستفزازات فلا ينصرف آناء الليل وأطراف النهار عن عبادته ووقفته البهلوانيــة الشاقة . ولا يتبلغ فى يومه بغير حبة أرز واحدة .

وانسبت الجرذان بالشيخ الورع ، فكانت تقترب منه وئيــدا يصدها الرعب التقليدى ويدفعها الفضول لتأمل هـــذا العـــابد الصوام . فاذا النورانية تضفى على وجهه الجليل ، وتشـــع من شواربه البيضاء المهيبة .

والفيران ــ كأبناء آدم ــ تخضع للعادة . وقد اعتادت أن تأنس الى القط « داديكارنا » فجعلت تقترب منه وتخاطبه فلا تسمع الا مواء رقيقا ينطق بالحـــكم البـــالغات ويفيض بالرأفة واكتسب « داديكارنا » اعجاب اناث الفيران بنوع خاص ، فكن يفدن عليــه جماعات محشودة ، يبثثن اليه شكواهن من ارتفاع أسعار الجبن الى ندرة الخبز المقدد ، ومن قلة نسلهن (كذا) الى بصبصة أزواجهن

لفأرات القرية المجاورة . ولا ينسين ثلب أعراض الجميلات منهن بالباطل والحق سويا . فكان مجلس القط صواء وعـويلا وضحكا وزفزقة وشقشقة ، فى غنج وأناقة ودلال ورشاقة كأحسن ما يكون عليه صالون مدام لاماركيز حين يتوسطه المونسنيور رئيس الأساقفة .

وهرنا « داديكارنا » يرفع مخلبيه محتجا أو متعجبا أو ضارعا أو مباركا . فاذا ماء فانما يموء بالوعظ والارشاد ، واذا سكت مواؤه الى تلاوته التى لا يغفل عنها « بر . . و . . ر . . بر . . » فتتبادل اناث الجرذان نظرات الاعجاب وترهف آذانها لهذا الترتيل بلغة مجهوله ، ينزل على قلوبهن بردا وسلاما ، حتى لياخذهن الاعجاب فى آخر كل مقطع « بر . . ر . . بر . . ر . . » فيرددون بصوت واحد « يا سلام ياسى الشيخ ! » .

وبلغ من دخول الجرذان على «داديكارنا» والفتهن له واعتيادهن عليه أن شكون اليه بنى جنسه من الهررة الطالحة ، وكيف تسطو على صغارهن فلا تبقى ولا تذر ، وذلك حينما يسعين فى طلب الرزق فتخرج الصغار من الأحجار رغم تحذيرهن لها من السنور وفتكه. فيرفع « داديكارنا » مخلبيه طالبا الرحمة لبنى جنسه ثم يقول :

ــ ولكنى كفيل أيتها المسكينات بأن أقوم على حراسة صغاركن.

وهنا يتطاير الخبر الى جميع القرى والدساكر بأن مولانا السنور الصالح قوام على صغار الفيران . فتؤمه الأمهات من كل صوب تسوق قطعانا من السيسيات تعهد اليه بحراستها ريثما يعدن من ارتياد كرارات المنازل المجاورة ، يحملن منها البندق واللوز وأقراص الجبن وكسرات الخبز . ومرت الأيام والشيخ « داديكارنا » محاط بالآلاف المؤلفة من صغار الجرذان .

الا أنه مما يؤسف له اشد الأسف أن تبتلى كل المجتمعات باناس لا يؤمنون بفضيلة ، ويتشككون فى براءة الغرض المقصود بصالح

الاعمال . وهم شديدو الريبة بالذات ممن يتغـالى في الورع ويمعن في التقوى . وقد قال قائل من هذه الفئة الكريهة :

ـــ لو أننى صدقت كل مفضال ورع فانه لا سبيل الى الثقة بهذا السنور . من لى بتصديق هذه الأنياب تلمع كالأسنة ؟ وهذه الشوارب ترقص شرها ، والعيون تبرق شرا مستطيرا ؟

وعبثا أجابته الاناث على هذا :

ـــ أنظر اليــه بادى الترائب والأضلاع ، واقفـا على مخلب واحد من مخالبه الخلفية ...

ـــ آه من مخالبه هذه !

ـــ أما ترى كيف بطنها بوسائد الحرير والزغب ؟

ـــ بلى ، وأعرفها مخبأ لأظافل كأنها كلابات الزبانية !

ـــ أما بلغك أمره وهو يتغذى بحبة واحدة من الأرز بين نهاره وليـــله ؟

ـــ لألغين عقلى قبل أن أصدق بأن قطـا تبلغ به القناعة هـذا المبلـــغ !

ـــ ألم تسمعه وهو يموء مرددا « القناعة كنز لا يفنى » !

ـــ ســمعته ، وكأنى بصغاركن هى التى أصبحت لديه كنزا لا يفنى !

قتل الفـــأر ما أكفره ! وهكذا ابتلى المجتمع بكل متحـــذلق متشـــكك لا يؤمن بفضيلة ولا يقيم وزنا للتقى . ومن عجيب أمـر هؤلاء أنهم لا يستنيمون للأفكار الموضوعـــة ولا يتقبلون الحـــكم المألوفة . فهم لغير أفهامهم لا ينصتون وبغير تحقيقاتهم الشخصية لا يؤمنون . مخالفو اجماع الأكثرية وخميرة عكننة الرأى العام .

ذهب الفأر المتشكك يتلمس الحجة التى تثبت له حقيقة الهر « داديكارنا » . فاختبأ ذات يوم يراقبـة وهو مقيم على حراسـة الآلاف المؤلفة من صغار الجرذان .. ويا لهول ما رأى !

شهد بعيني راسه القط الورع يتبلغ بجرذ واحد لا أكثر فالخير كثير والحمـد لله . والعقل الرجيح قد دله على أن جرذا واحـدا ينقص من فيران فى عدد الرمل والحصى لا يوقظ الشبهـات . فمن لى بهذه الفأرة التى تلاحظ نقصا فى عدد صغارها (« والعـد فى الليمون » واحد من التعويذات الهامة التى يستعملها شعب الفيران لاتقاء شر العين !) ومن لى وسط آلاف الأمهـات بمن يمكن أن تسأل عن صحة سلامتها اذا ما حدثتهن بنقص سـيسى من فلذات كبـدها .

وهكذا استعاض القط « داديكارنا » عن حبـة الأرز فأرا طريا رطب العود ... والعظام ، يكسر به صيامه اليومى من غير أن يكون مثارا للشبهات ، ودون أن يضطر الى السعى الشـاق وراء الرزق متصيدا ، وقد رأى فى التقوى والورع ما يبلغه قوت يومـه هادئا وادعا مشيعا بمديح جمهرة الفارات المهذبات .

ومنذ قدم الى الهر « داديكارنا » من أعلى صخرة « ما هابالى بورام » وأنا أعـد « الشيخ متلوف » جلفا سوقيا الى جانب هـذا السنور الظريف .

مَلك الزمان

سمعت عن أحد قضاتنا الظرفاء أنه تزحلق وهو يتقهقر منسحبا من حضرة ملكية . وحين سأله أصحابه عن النطق السامى الذى صدر عقب الهدر أجاب « قال يا سياف خد رأسه » .

وهذه النكتة فى رايى من أرفع النكات ، لأنها من النوع الذى توحى به قوة التصور لا القدرة على التلاعب بالألفاظ . فهذا القاضى يعلم تمام العلم ما هى الشخصية الملكية فى العصور الحديثة وفى البلاد المتحضرة . ولكن علمه لا يجديه شيئا أمام صور الطفولة التى طبعتها جدته فى خياله عن الملك والملكة ووزير الميمنة ووزير الميسرة والسياف والنديم . وهو رجل نكتة بارعة يأبى أن يجيب أصحابه الا بما يوحى اليه خياله الخصب . لذا حول موقف الملك الدستورى العصر يسرع الى قاضيه فيأخذ بيده وينادى على الطبيب أو الأجزاجى النوبتجى ليعنى برضوضه ، الى موقف ملك الحدوتة « بالزيت ملتوتة » يغضب بسبب ولغير سبب . لا يعجبه قوام القاضى ولا لخمته . فاذا تعثر فى فرجياته وانقفأ يفترش أرض الأيوان وهو منصرف من حضرة الملك ، نادى هذا على سيافه قائلا بكل بساطة « يا سياف خد رأسه » .

ولقد حادثت ملوكا عصريين وتناولت الطعام على مائدتهم . ولكن ذلك لم يمح من خيالى صورة « ملك الزمان » صاحب العرش

والايوان ، والحشم والأعوان ، وجزائر الخالدان . كما أن رغبتى فى رؤية الملوك والسلاطين لم تهدأ الا حين استقبلنا حضرة صاحب السمو السلطان ... ملك البر والبحر . صاحب الأمر والنهى فى آلاف من الجزر المسكونة وغير المسكونة . فقد عشت فى تلك اللحظة كل طفولتى وخيالها الواسع تتعهده جدتى . وعادت الى ذهنى صورة ملك الأفراح أو « ملك السعادة » كما كنا ندعوه ، يركب جواده المزركش المبرقش ، ويلبس قاووق مماليك بحرية أو برية ، يحيط به غلمان اتشحوا بأردية بدوية ، واعتقلوا بجدائل القصب ، وامتشقوا سيوفا راحوا يضربون بها تروسا عمولة السمكرى أو الحداد .

كنا نحب هذا الملك الذى ينزل الينا من علياء سنيه الخمسين ، ولحيته الكثة اختلط ملحها بفلفلها . فيحيينا بالابتسام وترقيص حواجبه الكثيفة ، ثم هو يخرج من جعبته مسمارين كبيرين فيغيبهما فى أنفه حتى تغطى راساهما طاقتى عرنينه الضخم . ويخرجهما لينحنى يمنة ويسرة لتصفيقنا وتهليلنا الذى يكاد يغطى على موسيقى حسب الله ، لولا صوت البوق الكبير يسطع فى شمس الصيف كأنه أشعتها النحاسية انعقدت لزفير موسيقار عتل عملاق ، مكتنز مكترش ، ضاق بحجم البوق ذرعا فتمنطق به والتحف وتجلبب . ولولا هزيم الطبل البلدى فوق الجمال وقد تمكن من القضاء على كل الأصوات ما عدا صوت البوق الكبير .

وتوالت أمامى صور مراهقتى وأنا أشاهد اشكالا والوانا من ملوك بيت التمثيل تنشد :

« ان لم أصن بمهندى ويمينى
ملكى فلست اذن صلاح الدين »

قيل « الخير على قدوم الواردين » . وقد تحقق هذا القول المأثور بعد أن استقبل صاحب السمو جماعتنا . فلم يمض على

مغادرتنا جزيرته الكبرى عام أو بعض عام حتى كانت سفينة شراعية تحمله الى المنفى وقد تنازل عن سلطنته مكرها . ولو كانت الآلهة القديمة اختارتنى بوقا لنبوءتها لرأيت فى اهتزاز عمامة سموه يوم استقبالنا ، وحرصه على توطيد دعائمها بيديه ، نذيرا بطيرانها يوما عن رأسه . ولكنى اتفقت مع قومندانا الاسكتلندى على أن قلق السلطان على عمامته كان بسبب ضيق مقاسها وأن كان أولى بنمرة اعلى .

لا شك أنى أستبق الحوادث حين أتكلم عن عمامة هذا السلطان المسكين ، كما أستبق الحوادث اذا قلت بأنى مساء يوم الاستقبال تبعنى فى معابر الجزيرة رجل حافى القدمين نصف عار وقال لى بلغة انجليزية عسيرة « رأيتكم اليوم وأنتم صاعدون لمقابلة سمو السلطان » وحين سألته عن نفسه أجابنى بما استطعت أن أفهم منه أنه سكرتير عام الحكومة . فانتهزتها فرصة أستطلع اخبار هذه الدولة الليلبوتية بعد أن تشرفت بمقابلة سلطانها فى ذلك الصباح ، وتعرفت الى وزرائها فى اليوم السابق . وسألته عن عدد موظفى رئاسة الوزراء والوزارات الأخرى فكانت اجابته غير المنتظرة « ايت » . فسألته دهشا « ثمانية أم ثمانون ؟ » وأصر على قوله « ايت سير » .

ولكنى أتبع سياق الحوادث اذ ذكرت مقابلتى فى شارع العاصمة الوحيد لرئيس الحكومة ووزير الحربية يترجل عن دراجته فيطير شبشبه وهو يسعى الى مسلما . يأتزر ببشكير على غرار بياع العرقسوس والحمامى عندنا ،وتغطى نصفه الأعلى جاكتة عسكرية ، وعلى رأسه « قلبق » رمادى أماله على وجهه الأسمر الوسيم ، ويخاطبنى بلغة انجليزية سليمة تقرب هى وصغر سنه الشبه بينه وبين طالب نجيب حصل حديثا على بكالوريوس فى آداب اللغة الانجليزية ، ثم يقدمنى الى أخيه وزير الخارجية والتجارة

فيحدثنى بلغة فرنسية رائقة عن مدرسة العلوم السياسية بباريس ومدرسة الاقتصاديات بلوندرة، واوبرا « كرول » ببرلين وصالة « بليل » بباريس .

عجب عجاب منظر هذه الوزارة الشابة تسعى فى شارع العاصمة الوحيد بمآزرها وشباشبها ودراجاتها . واعجب منه حين يطلعونك على معرفتهم بالعواصم الكبرى وما بها من موسيقات سمفونية ومتاحف . وعلى ما قاموا به من اصلاحات فى جزرهم ، ينشئون فيها الكتاتيب باشراف بعض الأهلين ممن تلقوا علومهم بالأزهر . ويشقون الطرقات الواسعة المظللة . ويغيرون سقوف المنازل من قش النارجيل الى الصاج المقوس ، مضحين بمظهر الجمال الريفى الأصيل فى سبيل النظافة العامة والطمانينة من الحريق . ويترجمون كتب الملاحة البريطانية الى لغتهم ليواصلوا تخريج مهرة الملاحين على أحدث قواعد الفن مما يساعدهم على الاحتفاظ بتقاليدهم البحرية القديمة التى جعلتهم فى طليعة رواد البحار .

أما السلطان فقد بقى تحفة قديمة يعيش على هامش هذا الاجتهاد العصرى . دخلنا قصره عابرين ممرات وغرفا ودهاليز كل زينتها الترس واليطجان وبعض الطنافس الفارسية الى جانب حصير من ليف النارجيل المجدول ، حتى بلغنا قاعة الاستقبال الكبرى فاذا بنا فى شبه « أودة المسافرين » لموظف من صغار الموظفين . فى ركن منها بيانو (كذا) وفونوغراف (كذا) من ذوات البوق .

وجلست جماعتنا وكلهم ـ ما عداى ـ مختال ببزة عسكرية بحرية بيضاء مشغولة بشرائط القصب ومشرقة بالأزرار البراقة والنجوم والتيجان الذهبية ، يسحبون سيوفا تلمع كبارق ثغر عبلة المتبسم . أما رئيسنا فقد وضع فوق راسه قبعة بيضاء عريضة

الأطراف ، تعلوها قطعة معدنية مدببة الطرف كالسهم ، اتفقنا جميعا - ووافقنا صاحبها - على أنها تؤدى فى جسده عمل مانعة الصواعق فى راس أبراج الكنائس . اما أنا فكنت بينهم فى سترتى البنية لوحتها الشمس ، والطربوش الذى استعرته من السفرجى على حمد ، كفأر الميضة تاه فى مصنع كسب وخرج منه فى لون العسل والطحينة .

جلسنا فى قاعة العرش أو أودة المسافرين حول كرسى يمتاز عن كراسينا بكثرة التذهيب وبمنصة ارتفع بها عن دنيانا الوضيعة. وكانت انظارنا متجهة الى باب غير الباب الذى دخلنا منه ، أسدلت عليه ستارة حمراء من الباتستا ، كثر خلفها الهمس واللمس ، والغمز واللمز ، ذكرتنى بالستارة التى تسدل على باب تياترو الأراجوز أو ما اليه « قبل ما يلعب » .

ثم رفع الستار ودخل رئيس التشريفات معلنا : سمو السلطان ! .

ودخل علينا رجل أسمر زائغ العينين يتعثر فى فرجية موشاة ذات أهداب وأذيال طويلة يحملها خلفه واحد من الحشم .

وما ان حيانا السلطان وارتقى فوق منصته ، وبينما نحن فى انتظار اشارته الينا بالجلوس ، حتى رأيناه يرفع يديه الى عمامة هائلة رجراجة كأنها فوق بحر لجى ، تعلوها مئذنة ذهبية ينتهى بما يشبه جذع شجرة موز شذبت أفرعها ، أو فجلة مقلوبة قام تمزين بقصقصة أوراقها . وأدت حركة السلطان الى توطيد العمامة فوق راس سموه ... ولو الى حين . فقد كانت هذه العمامة المركبة تركيبا مزجيا مصدر قلق سلطان طول المقابلة . وكانت يداه فى حركة مستمرة نحو رأسه ، كما يفعل ما نولى بقبعته حين يخشى أن تطير بها الشمال لتهوى بها تحت عجلات ترام أو أوتوبوس لا يترفق بالخشب والحديد بله الخوص ! .

جلس السلطان على أريكته وأشار علينا بالجلوس ، فجلسنا ونحن نلاحظ شعره الفاحم اللامع يتدلى من عمامته طويلا كشعر الأرتست ، ونتفرس فى وجهه وهو يدير فينا عيونا باسمة تشف عن طبع دمث . وقد أدركت لأول وهلة اننى أمام رجل حالم ينظر الى العالم من وراء بيالاته ، ويخلو الى شياطين هوياته الفنية ، يقرض الشعر أو يسمع الموسيقى فى أوقات الفراغ الطويلة التى تتركها له مهام السلطنة . عندئذ فهمت سر وجود البيانو والفونوغراف فى غرفة التشريفة الكبرى .

وبعد أن أجال فينا بصره المتردد الحائر وكأن الحياء ألجم لسانه ، رفع يديه الى عمامته ثم نطق بجملة واحدة قصيرة بلغته المجهولة التى كان رنينها فى أذنى كما يلى :

ــ منم منم منم .

وقام السكرتير الخاص بأعمال الترجمة فى أمانة واضحة اذ نطق بانجليزية فصحى :

ــ ان حضرة صاحب السمو السلطان يود أن يعبر لكم عما يخالج نفس سموه من سرور باستقبالكم فى مملكته ، ويتمنى لكم النجاح فى مهمتكم الخطيرة ، ويدعو الله أن يبارك لكم فيها .

فأجاب رئيسنا :

ــ قل لسموه اننا نشكره على تفضله بالسماح لنا بالعمل فى مياهه ، وباعارتنا سفينة شراعية برجالها ليشتغل عليها فريق منا .

السكرتير الخاص : منم منم منم منم (بقدر) .

السلطان : منم منم منم بروفسور ... منم منم كامبردج منم منم .

السكرتير الخاص : ان سمو السلطان يذكر بالخير البروفسور ... الذى كتب من له بكالبردج يوصى سموه بكم خيرا .

رئيسنا : (قال كلاما كثيرا)

السكرتير الخاص : منم منم منم (ثلاث مرات لا رابع لها)

السلطان : منم .

السكرتير الخاص : حضرة صاحب السمو السلطان يكرر لكم أحسن تمنياته ويدعو الله أن يبارككم . وسموه على استعداد لتقديم كل المساعدات التى تطلبونها .

ثم انقضت فترة هدوء قطعها علينا قلق السلطان الدائم على عمامته ، فرفع يديه الى أعلى ايقافا لها عما لا تحمد عقباه .

وبعد حديث عن الأزهر وفضله على العالم الاسلامى وعن بعض أفراد الرعية يتلقون العلم على حساب السلطان ، شعرت كأن سموه سئم مهام الدولة وهذا الحديث الرسمى المتصنع . فقد تمتم بما معناه أنه سمع عن المصريين أنهم موسيقيون بارعــون . وأطرقت برأسى متسائلا عما اذا كان سموه قد حسبنا تختا متنقلا ولكن القومندان وهو اسكتلندى لا يعرف المزاج أجاب عنا نحن المصريين:

ــ الدكتور فوزى موسيقى

السلطان : (يخاطبنى) منم منم منم (وأشار الى البيانو)

أنا (للسكرتير) : اخبر سموه أنه لا دراية لى بالعــزف على البيانو (ولو أطلعت نفسى الأمارة لأضفت ، وانما اجيد العزف على الفونوغراف) .

كلا ! يقينا ان سموه مصر على اعتبارنا جوقة من المهرجين فقد سأل عن نوع العزف الذى أمارسه . وتولى عنى الاسكتلندى الملعون القول بأنه عزف الكمنجة . وحمدت الله واثنيت عليه الا توجد على حيطان الممرات والدهاليز غير التروس واليطجانات ، وفى « أودة المسافرين » غير بيانو وفونوغراف .

وى ! لقد تمتم السلطان واهتزت ستارة الأراجوز ، ودخل الخدم وخرجوا ، ولبثنا بضع ثوان كانت دهورا ، أو لم أسمع السلطان يقول « منم منم سارونجى منم منم » ، والسارونجى أليس هو الكمنجة ؟

ورفعت الستارة الباتستا الحمراء ودخل رئيس التشريفات يحمل ... اللهم ارأف بعبادك الموسيقيين ولا توقعهم فيما أوقعنى فيه القومندان الاسكتلندى !

كان رئيس التشريفات يحمل نفيرا فضيا كنفير الساكسوفون ، مثبتا فى هيكل كمنجة . أجل ، كان يحمل تلك الآلة البزرميط التى اخترعها أهل الجازباند فى أمريكا فاستعاضوا عن صندوق الرنين الخشبى فى الكمنجة بهذا النفير الساكسوفونى . كيف أفسر للسلطان « منم منم » بأن هذه ليست كمنجة وقد شدت عليها أوتار الكمنجة الأربعة ؟ وركبت لها حمالة الذقن كما فى الكمنجة ؟ وسلمنى رئيس التشريفات قوسا غزير الشعر مضبوط الشدة . ولكن كيف أوقع على أداة لم أحملها على كتفى يوما ولم أسمع صوتها ؟

اخذت هذا المسخ الموسيقى ، هذا النص سمكة والنص بنى آدم ، وطفقت أصلح أوتاره وقد تصبب العرق على جبينى خجلا وحيرة . ثم وضعته على كتفى وبدأت أمر بالقوس حذرا لأعرف نوع الصوت الذى سوف يخرج . فمن يدرى ربما خرجت من هذه الآلة أصوات الصفير والتزمير ، وقرقعة شخشيخات وصاجات وجلاجل ؟ هؤلاء الأمريكان ، أليسوا قديرين أن يجعلوا من هذه الكمنجة جازباند بأكمله ؟ فوا أسفاه على حياة قضيتها أتهجى سوناتات بتهوفن وموزارت وهندل وشومان تنتهى بأن أشتغل جازباند أمام حضرة صاحب السمو سلطان ... ملك البر والبحر والأربعة آلاف جزيرة !

. لم يكن كل هذا ، ولكن الصوت كان غريبا على اذنى ؛ فهو كمنجة مافيش كلام ، ولكنها كمنجة أصيبت بتضخم فى اللوزتين فكانت تنعر نعيرا بدل أن تغنى ، والأمر لله !

. اجريت القوس بيد مرتعشه ثما يعبث الطفل باله موسيقية . فخرج النعير مذبوحا مسلوخا ، وتحول حفيفا وازيزا وشحيرا ونفيرا، وضرب الفارابى لحنا فناموا ، وضرب لحنا فقاموا وصلوا وصاموا . أما انا فقد وقعت لحنا وكدت أقع من الحجل والارتباك .

انا (للسكرتير مستنجدا) : ارجو الاعتذار لسموه فلست مستريحا الى هذه .. الكمنجة .

السلطان : منم منم .

السكرتير الخاص : لقد لاحظ سموه ذلك .

وخرجنا من الحضرة السلطانية لنعود من تلك الدهاليز والمعابر والممرات التى تشبه سكة أبو زيد ، حتى وصلنا الى باب السراى واذا برئيسنا الانجليزى يقهقه ضاحكا ، ويقول لى :

ـ يجب أن تطبع على كارتك منذ الآن يا فوزى « والموسيقى الخاص بسمو السلطان ... »

ـ ؟

ـ لقد ظفرت اليوم بخبر من أظرف الأخبار اكتبه للبروفسور ..

ـ ؟

ـ أثناء التشريفة طلب السلطان .. كمنجة ليوقع عليها الدكتور فوزى ألحانا مصرية . فجىء له بمولود عجيب نتج من زواج كمنجة بساكسوفون ! »

ولم يكذب رئيسنا خبرا . فقد سمعته قبيل منتصف الليل يوقع على الآلة الكاتبة رسالته المعتادة الى البروفسور . وكنت ممددا على سريرى استسلم للنوم وصوت الآلة الكاتبة يقرع فى قمرة الرئيس المجاورة لقمرتى ، ويختلط فى راسى بأصوات تتمتم « منم منم منم » هكذا :

« تك تك تك . . تك . . تك . . تك تك . . زىء . . منم منم تك . . تك تك تك . . منم تك . . تك . . زىء . . »

وفى تلك اللحظة السعيدة بين النوم واليقظة ، حين يغفو عقلنا ويصحو خيالنا ليمرح طليقا فى أجواء الأحلام ، خلت الآلة الكاتبة تقول فى بيان انجليزى فصيح :

ــ تك تك تك . . . تك . . . تك . . . وقد أنعم عليه السلطان بلقب الموسيقى الخاص بسموه ، زىء . حين وقع على آلة موسيقية عجيبة ، تقول للساكسوفون يا أبى ، وللكمنجة يا أمى . . . تك تك تك . . تك تك . . زىء . . »

حكاية الخروف
الذى أفلت من خرم إبرة

لم تكد الباخرة ... تغادر معابر عدن الى عرض البحر فى رحلتها الثانية حتى توقفت غرفة التبريد عن العمل . وفسد كل ما على السفينة من زاد طازج . فألقينا الى البحر بما يساوى خمسين جنيها من الأغذية طعاما سائغا للقروش الجائعة . ومع ذلك لم يفكر أولو الأمر بالعودة الى الميناء . وللانجليز فى أمثال هذه المحن طابع خاص هو أحد عناصر القوة فى هذا الشعب الغريب . ولقد عجبت فى أول دخولنا البحر الأحمر من أن أرى رئيسنا وزملاءنا منهم سريعى القلق ، كثيرى التبرم ، حفازين الى نقد رجالنا ، خلاقين من الحبة قبة . فاظهرت واحدا منهم على ما بنفسى من الدهشة لسلوكهم هذا وأنا أعرف من الانجليز رباطة الجأش وضبط النفس ، قال لى : اننا فى بدء الرحلة وليس فى كل ما لاقينا أمر جلل . فلا تكن سريع العتب علينا فى هذه الخطوات الأولى وخلال الأحداث التافهة . انما تعرف الانجليز فى الملمات ، اذا ما حزب الأمر وتوالت الشدائد .

ولست على يقين من تقدير زميلى البريطانى لفقد زادنا الطازج أعددناه لرحلة يطول أمدها فى عرض البحر الى الثلاثة والأربعة أسابيع ، أيعده احدى الملمات ، أم هو أمر تافه ؟ .

كل ما أعرفه أن رئيسنا لم يفكر بالعودة الى الميناء لاصلاح غرفة التبريد واعداد اغذية جديدة ، بل كان الأمر أن نواصل سيرنا تبعا للبرنامج المرسوم .. والفعل أن نجلس حول الخرائط نوقع مواضع محطاتنا العلمية فيما بين الشاطىء الافريقى والشاطىء الأسيوى لخليج عدن والبحر العربى ، وأن يصدر القومندان أوامره الى السفرجى الأول ، ليخرج « التعيينات الناشفة » والعلب المحفوظة من مخازنها . والبركة فى « البولبيف » و « الكارى » ، وعلب التونة والسردين ، وأكياس الدقيق وأفراد الرز وحزمات المكرونة ، وهراديم الجبنة الشستر . نعود الى عدن ونتأخر عن البرنامج وعندنا كل هذا مع الماء والملح والفلفل ؟ كلا وألف مرة كـلا !

حقا انه لشظف من العيش أن نتبلغ كل يوم بالأرز والكارى والجبن واللحوم المحفوظة ، زهاء عشرين أو خمسة وعشرين يوما. ويقينا انه لبلاء أن نشرب الماء دافئا فى جو من اشد اجواء العالم حرارة ، مع ما للماء من مذاق مقرف اكتسبه فى خزانات السفينة . ولكننا لم نركب هذا المركب فى نزهة بحرية ، بل كتب علينا الجهاد و « سوف تعرف الانجليز فى الملمات اذا حزب الأمر وتوالت الشدائد » .

ولقد عرفتهم أول المتبرمين بالتغذية السيئة والماء الساخن الآسن . ولكنهم رجال الشعب المجيد القوى . كيف تثنى عزماتهم سفاسف الأمور ؟ وهذا الرئيس ينادى « الى المحطة رقم ٥٣ يا أولادى ، أعد الشبكة « أجاسى » يام . أصدر الأمر باخراج جرافة « أوتار » يا فوزى ، ركب محاليلك يات » .

ولكن فوزى موحوس أكبر وحسة مع باشمهندس السفينة . فهذا الشاب اللوندرى الرقيق الوسيم ، الذى تنتهى آماله الى عمل ثابت على الأرض اليابسة ، ومنزل ريفى بضواحى لندرة ، وزوجة

تعنى بالهوم ، يتحمل مسئولية كبرى أمام القومندان الأسكتلندى الحاد الطباع . وهو المتكفل بآلات غرفة التبريد ، وقد حاول جهده اصلاحها ونحن مرابطون فى عدن . فأصلحها أو ظن أنه أصلحها فخاب ظنه قبيل الرحيل . وخرجنا الى عرض البحر فى ميعادنا والباشمهندس ملبوخ بين آلات التبريد وصنابير غاز كلورور الميتيل الذى يمدها بالبرودة . وقد بلغ من اخلاصه لواجبه أن عرض نفسه لتأثير هذا الغاز المخدر حتى تشبعت به أنسجته وأجهزته . وهو اليوم صريع على ظهر السفينة عند مؤخرتها لا ينفع فيه دواء ، وعلاجه الراحة والتهوية والسوائل والمسهلات التى تساعد جسده على التخلص من غاز كلورور الميتيل . واذا لم يكن الهواء نادرا فى عرض البحر ، ولا المسهلات نادرة فى الاجزاخانة ، فقدخلت السفينة من مأوى يستريح فيه المريض المبنج .

كان واجبى الأول كطبيب السفينة أن أشير بالعودة الى الميناء لنقل مريضى الى المستشفى ، حيث يبقى بضعة أيام تحت عناية المرضات أكثر من تطبيب الأطباء . ولكن رئيسنا طبيب أيضا ، يقع لعينيه ما يقع لعينى ، فلماذا لا يشير هو بالعودة وبيده الأمر ؟ انه انجليزى « وسوف تعرف الانجليز فى الملمات اذا حزب الأمر وتوالت الشدائد » . فلعل ما يبدو لعينى كشدة وملمة لم يبد كذلك لعينيه ، أفاذهب وأشير بالعودة ليحسب على ذلك ضعفا واستسلاما للتافه من الأمور ؟ فلنحاول علاج الرجل بما فى استطاعتنا .

ولكنه ينحدر منا سريعا الى غفوة قد لا يفيق منها ولا تجدى وسائلنا فى ايقاظه . لذا عولت أن أتحمل مسئولية عودة السفينة والتأخر عن البرنامج ، فان واجبى الانسانى يتقدم واجبى العلمى .

ذهبت الى القومندان وأشرت عليه بالعودة ، فجمعنى ورئيس البعثة . ومع أننى على يقين من أن ما أشير به هو ما يريده الجميع

على ظهر الباخرة ان لم يكن لعلاج الباشمهندس فللتخلص من الأرز والكارى ولبخات البولبيف ، فان لجنتنا الثلاثية لم تقرر العودة الا بعد أن استوثقت منى بصفتى المسئول مباشرة فى هذه الحالة» بأن ما أشير به هو السبيل الوحيد لانقاذ حياة الرجل .

وحولت السفينة اتجاهها نحو عدن والكل فرح بهذا الحل ، ولو أن الكل يخفى شعوره تحت ظاهر من الجد ، وكأننا نقول « انما نعود لنقل المريض الى المستشفى » ، واذا كانت هذه هى الحقيقة فانها لم تكن كل الحقيقة . والشهيد على ما أقول علب البولبيف والأرز والكارى فى الصباح كما فى المساء .

وبعد أيام قلائل عاد الينا مريضنا فى دور النقاهة وخرجنا الى البحر دون أن نتمكن من اصلاح الثلاجة . ولكننا فى هذه المرة استضفنا أزواجا من الدجاج اليمنى تكاكى فى أقفاصها ، وقطيعا من غنم بربر تثغى وتماىء فى زريبة أقامها النجار لنا الى جانب من مقدمة السفينة .

وكان السفرجى يذبح من الخراف واحدا كل يومين فيكاد يكفى اطعام الأربعين فما . ولست أنسى خراف بربر فى زريبتها البحرية المرتجلة ، ولا منظر السفرجى الأول وهو يعلفها . انما كنت أتجنب منظر ذبحها ما استطعت .

ولست أنسى تبرم البحارة بلحمها اليابس وقلة ما يصيبهم منه يوميا ، وشكواهم الى ساعة الغــداء وهم يمرون بى حاملين صحافهم الألومنيوم تسبح فيها بضع قطع من البطاطس يتصيدون لى من بينها بعد عناء قطعة من العظم علقت بها فتائل من لحم كأنه نثارة الخيش .

يا لروح المزاح عند بحارتنا ! فقد استطاعوا بهذه الروح أن يتسـاموا فوق المحن . ولقد شهد لهم بهذا رجال البعثة ، ورددت

الصحافة البريطانية شهادتهم . ذكر البحارة حكاية المطعم البلدى، والزبون الذى عثر على « نحلة لعب » فى طبق «المبرومة» فنادى على صاحب المطعم بين حلله . يا أسطى هات واحد قطان » . فكانت كلمتهم السائرة طول هذه الرحلة وهم يحملون صحافهم وبها كلاكيع العظام الآنفة الذكر « يا أسطى هات واحد قطان !.»

وذات يوم احد ــ وكان يوم التفتيش الأسبوعى ــ نفخ البرُوجى فى صورة نوبة الاستعداد للتفتيش . ولبست جاكتتى البحرية وقلنسوتى لأصطحب القومندان أثناء دورته كالعادة . ومررنا بالزريبة نسأل عن صحة سلامة ضيوفها العجاف ذوى الأنوف السامية المعقوفة . والقومندان رجل دقيق الحساب وقد ضرب اخماسه فى أسداسه فلا حظ أن خروفا منها نقص . فأجابه الموكل بالزريبة « الخروف وقع فى البحر » . ودرت ببصرى التمس الموضع الذى يمكن للخروف أن يفوت منه فلم اهتد اليه ، وقلت فى نفسى دون اقناع « ربما ! وما دام الموكل بالزريبة يقول بهذا فلا مفر من أن يكون الخروف قد وقع فى البحر بطريقة مجهولة لى . ما شأنى وذلك ؟ فليحقق القومندان اذا راق له التحقيق » ولكنى أعدت النظر الى الخراف الباقية والى الفرجات بين تخشيبة الزريبة ودرابزون السفينة ثم ضحكت فى سريرتى وأنا اقول « لأكتبن يوما حكاية الخروف الذى افلت من خرم ابرة » .

ولم يعر القومندان الأمر اهتماما ، فكل ما يهمه من أمر هذه الخراف أن تكفينا حتى نصل الى الميناء ، وهى كافية فلا خوف علينا ولا نحن حزينون .

ولكنى ذهبت اتقصى الأمر سرا ، معتمدا على ثقة البحارة بى ، فلم أوفق الى الاهتداء . وذهبت أسأل « الكنجى » أى المهندس الثانى ، وهو رجل اسكندرانى بارع النكتة ، حسن السمر ، محب للغناء والطرب . له طريقة فى الاحتجاج على مالا يرضيه كانت كفيلة

بأن ترفه عنا تعب أيام . وحقا ان خير الكلام وافضل انواع الاحتجاج ما قل ودل . واحتجاج الكنجى كان شخرة اسكندرانية هائلة ، يشهد المحيط الهندى بأنها كانت الأولى من انواع الاصوات الآدمية تدوى بأصدائها مياهه . رأيته ذات مساء جالسا عند مؤخرة السفينة وقد اولى الجميع ظهره . وسرح بصره فى الأفق . وكان ذلك عقب مشاحنة له مع أحد الضباط جاء يشكو اليه انطفاء بعض أنوار الملاحة ، فلما أن قابل شكواه بالشخر اللازم ، وقام يصلح الأنوار . عاد اليه الضابط ينهره ، فولاه ظهره . ومررت به فى تلك اللحظة فجعل يتكلم كالمخاطب نفسه « أنوار الملاحة (شخرة) . احنا فين هنا ، احنا فى وسط البحـر يا عالم ، فى وسط المحيط الهندى . هىء هىء يا أنوار الملاحة ، ما تقولش احنا راكبين أتوموبيل فى شارع الكورنيش (شخرة) » .

هذا الكنجى يأنس اليه البحارة . يوافيه من فى « الراحة » منهم الى مجلسه المختار كل صباح عقب ورديته الليلية . ومحله المختار هو باب الوجاق (المطبخ) من ناحية « السقالة » ، حيث يبدأ حديثه مع الطباخ والسفرجى الأول بالسؤال عما يعدونه للغداء فى ذلك اليوم ، ويتحرق شوقا الى الملوخية والبامية والفول المدمس ، ويسخط على الدنيا وما فيها لأن نظام الطهى والأكل على السفينة نظام انجليزى تلعب فيه أكوام البطاطس وهراديم اللحم المسلوق دورا كبيرا .

التجأت اليه لعلى أجد عنده الخبر اليقين عن الخروف المسكين ، الذى قيل بأنه مات غرقا . ولكن الكنجى ضحك لقولى « ان الخروف لا بد أفلت من خرم ابرة » ولم يزد .

الى ان عـدنا الى مصر ورجوته ان يكشف لى عن الحقيقـة « لتطمئن نفسى » وهذا ملخص حكايته :

ضاقت نفوس البحارة ـ ومعداتهم ـ ذرعا بقلة تعيينهم من اللحم ، وتواطأوا فيما بينهم على اختطاف خروف تحت جنح الظلام دون أن يعلم بأمرهم رئيس السفرجية الذى ينام ملء جفونه طول الليل . وتكفل « الواد ... » بذبح الخروف وتوضيبه : « أصل الواد الـ ... جزار ابن جزارين » . وتقاسم البحارة خروف بربر المدبوح تحت جنح الظلام . ولعلمهم بأمانة الكنجى على سرهم أرسلوا يعرضون عليه « الكبدة والكلاوى » .

وفى رأيى أن الدافع على المؤامرة لم يكن الجوع وحده بل روح الشيطنة أيضا . فالبحارة كما قلت فى موضع آخر أولاد عفاريت . وفى تواطئهم ليلا على حياة خروف « فصل لم يكسبهم قسطا اضافيا من اللحم فحسب ، بل أدخل على نفوسهم المرحة سرورا صبيانيا ربما كانوا يتحدثون بأمره الى اليوم .

هذا كان من أمر رحلة حافلة بالحوادث ، مليئة بالمشــاق نتيجة وقوف آلات التبريد عن عملها .

وما كان من أمر الخروف الذى أفلت من خرم ابرة .

صور

- ڤينوس من الأبنوس
- ابنة البنجاب
- ماهابالى پورام
- المدُن المدفونة
- شجرة البودى المقدسة
- پريم
- خوريا موريا
- أبراج السكون
- حجاج راميشڤارام
- ويحك يابن بطوطة!

ڤينوس من الأبنوس

مسلمة هذه البربرية كما تقول . ولكن يغلب على ظنى أن اسلامها قشرة تشققت فى كل موضع ، لا لأنها تشرب الخمر فى رمضـــان ـ فالله غفور رحيم ـ ولا لأنها تحترف الدعارة ـ فهو الوعد ـ ولا لأنها وقفت عارية أمام جماعتنا ـ وقد اعتدنا ذلك من المسلمات فى غير موضع من أرض الله الواسعة ـ بل لأن فى حركة خلعها لردائها سهولة مقلقة . خلعته تبعا لسليقتها ، ورجوعا الى طبيعتها وحيلتها الأولى فى الحرج الافريقى . والمرأة المتحضرة اذ تتعرى تعود هى أيضا الى فطرتها . ولكنها فى حركة التجرد تتخطى أجيالا وآبادا من المدنية لتتصل بامها الأولى طريدة الفردوس أما هذه البربرية فلا تفصلها عن حرجها فى الزمان والمكان ســوى فترات وخطوات معدودة . جلبابها وضع من الأوضاع لم تفهم ضرورته بعد . وربما كان شعورها فيه قلقا كشعور المتحضرة حين تتجرد . ولا عبرة بالمتحضرة اذا اعتادت العرى فى تأدية حرفة معينة . فالتجرد هنا نتيجة الاعتياد وليس عـــودة الى الفطرة . ولن أنسى اللحظة التى رأيت فيها واحدة من هؤلاء القت بها المقادير فى أول درك من دركات الشقاوة النسائية ، وطلبت منها أن تخلع كل ما عليها من ثياب خضوعا لاجراءات رسمية مخصوصة . وقد

اطرقت براسها الى الأرض وتراخت مفاصلها ، واحتفظت بقميصها معلقا بيديها تحاول ان تستر به جسدها ما استطاعت ان تستره . أما هذه البربرية فما ان رغبنا اليها أن ترقص حتى نزعت رداءها كأنه قشرة الموز ، وظهر أنه كان كل ما احتوى جسمها من غطاء وأن كل ما قد نتسامح فنسميه غطاء للعورة هو .. عقد من الخرز الأبيض حزم وسطها ثم انحدر على تيجان فخذيها . واستحالت تلك المرأة السوقية التى كانت تتعثر فى فستان منالحرير اليابانى الى حسام أسود يلمع فى ضوء سراج من البترول الى جسد نابض بالحياة يتحرك طليقا ، وقد أحال الحجرة الحقيرة الى حرج أفريقى لا تكاد الشمس تنفذ من بين أغصانه الملتوية المتعانقة ، وأوراقه العريضة تتصبب ندى ورطوبة لزجة . جسم لا عيب فيه سوى دقة أطرافه . أما استقامة الجيد واستدارة الأكتاف ، ورحابة الظهر ، وانتظام الصدر ، وتقبب البطن . واستدقاق الخصر بنفرج أقواسا تنحدر فى ميل خفيف الى حيث الركبتين ، فقد كانت نموذجا لأكمل ما يكون عليه جسم الأنثى .

ورفضت البربرية على توقيع غناء صاحبة لها ، وهو غناء كله حنين الى فطرة بهيمية ، يختلط فى خيالنا بقصة جداتنا عن جارية من « نيام نيام » ارتدت الى وحشيتها فى بيت واحد من أسلافنا بالقاهرة . دخل عليها أهل البيت فوجدوها تغنى وترقص عارية . حول مأدبة مرتجلة قوامها طفل من أعمامنا الأولين .

كلا ، لا يمكن أن تكون تلك البربرية مسلمة . فرقصها وغناء صاحبتها صلاة وحشية الى صنم الحرج فى صحبة العشيرة تدور حول قربان آدمى ، على وقع طبول مفزعة وتحت الأنظار المغناطيسية لساحر القبيلة جلاب الغيث .

ابنة البنجاب

نسيت اسمها . ربما كان « جليلة » أو ما شابه ذلك . ولكنى أذكر انها فتاة مسلمة من البنجاب . دخلنا فى كراتشي الى الطابق الذى تغنى وترقص فيه ، وجلسنا على بساط قذر ، أو هو خرقة ما . واتكأنا على وسادات مرتكنة الى جدران الغرفة ، وسادات لا تنذر بخير ، مظهرها وملمسها ومخبرها تبعث فيك رغبة ملحة على الهرش دون سبب أو بسبب .

وكانت جليلة جالسة أمامنا على البساط مثلنا ، وسط تختها المكون من لاعب « السارونجى » وهو الكمنجة الهندية يوقع عليها صاحبها واقفة كالرباب ، وضارب النقارية ، وهى طبلات مصغرة من طبل النقرزان . وربما كان هناك لاعب ناى وضارب دف ، ولكنى لا اذكر جيدا سوى « السارونجى » والشيخ المهوب الملتحى الذى كان يوقع عليه ، والنقارية وصاحبها العصبى النحيف الذى ذكرنى ببعض القهوجية عندنا ممن يسرفون فى الموبقات وينتهون الى سراى المجاذيب أو محكمة المخدرات . النقارية فى الموسيقى الهندية كالدف أو الرق عندنا . فهى سيدة « الواحدة » وضابطة التوقيع ، صاحبها هو الرئيس الفعلى للتخت . ويكفى أن تراه فى اللازمات أو الفواصل يضرب بعصيه جلد الطلبة آنا وخشبها آنا آخر ، وأن

تنصت اليه ينتقل من توقيع الى توقيع ، لتعرف أنه المتحكم فى الراقصة ورجال التخت ، وتوقن أن « التم والتك » هى أهم ما فى الموسيقى الهندية كما أنها أهم عناصر الموسيقى الشرقية – وفى رأيى أنها احدى مميزاتها التى تستحق الذكر .

وقدمت الينا أوراق « التنبول » مع « الفوفل » . ولست أعرف ماهو التنبول ولا ما هو الفوفل أكثر من أن الأول أوراق شجر (وهو معروف !) والثانى حبوب نبات (وهو معروف أيضا !) كحبوب الفلفل الأسود ولكنها رمادية اللون . وأن التنبول والفوفل نباتات يمضغها الهنود ، ويقدمون لك منها ورقة وبضع حبات ، كما تقدم القهوة فى بلادنا . والويل لك ان مضغت أوراق التنبول ، فهى كالحناء تحول شفتيك ولسانك ولثتيك الى لون أحمر قان ، ربما راق لمن يهمهم الأمر . ولكن جماعتنا كانت على حذر ، فقبلت هدية أصحاب المكان ولم تذقها .

وكانت فتاة البنچاب متربعة وسط التخت الذى جعل يطرز حولها من النغمات والتوقيعات ما ركز النغم فى اذنها ثم بدأت تغنى غناء الهند الشمالية (السند والبنچاب وراجبو تانا كشمير) وقد بدأ لى أن هذه الموسيقى خليط من الفارسية والعراقية والسورية مع شيء من موسيقى أواسط آسيا .

ثم انتصبت قائمة وجعلت ترقص رقصا توقيعيا لا فن فيه ، يعتمد على دقات قدميها وقد أحاطت ساقيها بخلخالين من الجلاجل ، وعلى حركات ذراعيها الى أعلى وخلف رأسها أما الجسم فيغلب عليه الثبات ، ولا تكاد الراقصة تتحرك فى أكثر من موقع قدميها . ثم هى تغنى وهى ترقص ، ولا ينتظر لمثل هذا الاشـــتراك أن يكون الرقص عويصا والغناء صعبا .

« جليلة » هى هذا الشرق الطويل العريض الفارغ ، هى تلك الشعوب التى ما زالت تفكر وتحس باحساس القرون الوسطى ، وتصر على حسبان بواقى حضـــاراتها البائدة لا ملكا للتــاريخ والمتاحف ، بل اداة للحياة حتى فى القرن العشرين .

لم تثر فى فتاة البنچاب ولا موسيقى السند أكثر من احساس بتدهور الشرق وخيبته الثقيلة . وقد ذكرت ، وانا اشاهد هذه البنچابية وتختها وجمهورها ، ليلة لى فى باريس ، حملتنى فيها قدماى لا الى كونسيرات الموسيقى السمفونية ، ولا الى حفلات ايزادورا وبافلوفا وأرجنتينا ، ولا الى أوپيراث فاجنز ومسور جسكى وريشارد شتراوس ، بل الى مقهى عربى جوار جامعها المشهور . وأجلت بصرى فيما حولى فوجدت الشرق كله ممثلا فى الجمهور وقد تمدد أفراده على مقــاعد منخفضــة ، ويدخنون نارجيلاتهم أو سجائرهم فى أفمام من القهرمان . وينصتون الى تخت يغنى « يا منعشة يا بتاعة اللوز » ومنولوجست يلقى « شم الكوكايين خلانى مسكين » وكمنجاتى مشهور يوقع « تقاسيم » .

أدرت بصرى مرات كثيرة ، فلم تك عيناى تلتقيان الا بوجــوه مفعمة حيوانية .

فى تلك الليلة ملت على صديقى وزميل جولاتى الفنية فى باريس وقلت له : « روحانية الشرق » .

فأجابنى : « يغور الشرق يا سيدى اذا كان كده » .

وفى الهند رأيته كده وأسوأ من كده ! .

ماهابالى پورام

كانت « كنجا » ابنة الشمس وهيما لايا تعيش فى السماء . وود « باجيراتا » لو نزلت الى الأرض لتغسل بمياهها القدسية رماد أجداده . وسافر « باجيراتا » الى الهيمالايا حيث انقطع للعبادة متقشفا . ودعا « براهما » حتى استجاب دعاءه ورضى أن تهبط « كنجا » من السماء . الا أن مياهها سوف تكتسح العالم اذا لم يتلقها « شيڤا » أولا . فاتجه « باجيراتا » فى عبادته نحو « شيڤا » حتى استماله وتلقى « كنجا » فوق رأسه ، ولكن مياهها كادت تضيع فى شعره الكث دون ابتهالات « باجيراتا » .

وانحدرت « كنجا » الى الأرض يصاحبها « باجيراتا » حتى مياه المحيط . وجاء القاصى والدانى يشاهدون فى خشوع ذلك النهر الرائع (الكنج) ، ويغتسلون فى مياهه المقدسة .

جهد الفنان المجهول أن ينحت على صفحة صخرة سمراء فى وادى « ماهابالى پورام » ما أوحت به اليه تلك القصة الالهية . . وليس لعبقرية أقل بذخا من عبقرية « ميكيل أنجيلو » أن تستطيع ذلك . وصخرة « ماهابالى پورام » قد حملتنى على التفكير بأكبر فنانى الرينسانس ، ولعله أعظم من أنجبته أوروبا من رجال الفن .

والفنـــان المجهول الذى نحت صخرة « ماهابالى پورام » ربما كان أكبر من ظهر فى آســـــيا من رجال الفن . فقد حول هذه الصخرة الصماء غير المستوية الى سمفونيـــــة منظورة ، الى عالم مزدحم بتماثيل آلهة وآدميين وحيوانات تتجه جميعها الى شق فى منتصف الصخرة مثل فيه الفنان « كانجا » فى صورة حيات (ناجا) ذات رءوس وصدور آدمية .

أنظر الى هذه الفيلة تيمم شطر النبع الالهى حولهـا صغارها والى السباع والغزلان والقردة تجرى لتشـــــاهد « كنجا » ابنـة هيمالايا والشمس تغدق نعماءها على الأرض . أنظر الى صاحبى « داديكارنا » الهر المتقشف وقد انتصب قائما على قدمه الخلفية ورفع الأخرى وطرفيه الأماميين الى أعلى فى حركة نساك الهنود ، والى الاله « شيڤا » والالهة « دورجا » ، والى النساك وقد بدت ضـلوعهم تقشـفا وانحنت رءوسهم خشوعا . أنظر الى الملوك والأمراء يهرولون نحو النهر المقدس يتمثل فى الحيـــات الآدميــة « ناجــا » .

لو أن نحاتا أغريقيـا أعمــــل أزميله فى هذه الصخرة تحت شمس « أتيكا » ! ويحى لقد أفسدت الصورة التى طبعتهــا فى ذاكرتى . صخرة « ماهابالى پورام » وافقدتها كل معانيها فى نفسى . فلم يكن الاغريقى ليصور نبعا مقدسا . بل كان فى الأغلب ممثـلا « أرفيوس » فى الشق الأوسط وهـو يوقع على قيثـاره المعجب ، وحوله الانس والجن خاشعة ، والأوابد مستكنة ، تنصت . الى موسيقى « أرفيوس » الحزين يبكى ويستبكى زوجته الرقيقـة . « يوريديس » . ولم يكن الفنـــان الاغريقى ليهمل تنسيق تلك الجماعات فى وضع ترتاح له العين وتهدأ اليه النفس .

أتيكا ! ليس غيرك مستطيعا تهدئة الطباع واسلاسها . ومهما ارتفع هذا الفنان الهندوسي بخياله واحساســـه وفنه فهو عاجز الا عن اثارة القلق في نفوسنا . وهو مطبق على انفاسنا ، مشوش مشاعرنا بذلك « الفريسك »الصخرى يئن لهفـــة وخشوعا لتلك الآلهة القاسية نزلت على البشرية نقمة ، وأحاطتها بحلقة التناسخ، تذكرها بأن لا خلاص لها من ذنوبها وذنوب أســلافها حتى ولا بالموت ، وبأن كل جهودها في الجوع والعرى والعذاب الجسمانى على ممر الدهور لن تصل بها في أحسن ما تنتظره من ثواب الا الى الفناء النهائى ، نقطة ماء تعود الى المحيط ، نيرفانا !

المدن المدفونة

تموت المدائن كالناس موتا طبيعيا أو أثر حادث . ومع أننا نعرف كثيرا من التفاصيل عن موت المدن العنيف نتيجة للزلازل وهياج البراكين واجتياح الموجات المدية للشواطىء فاننا لا نعرف تاريخا يفصل الموت الطبيعي للبلاد ، حينما يغادرها الناس نهائيا ليبتنوا أو يستقروا فى مدينة أخرى تبعا لتطور طبيعي فى العمران. نعم ان المؤرخين يدرسون عوامل انحلال المدن العامرة ، ولكننا لا نسأل هنا عن المؤرخ بل عن الكاتب الذى يصف لنا اللحظات الأخيرة فى أجل المدن المهجورة . ويقيني أن كاتبا من الكتاب لابد وأن يكون قد عني بمعالجة هذا الموضوع المحزن ، ولم أوفق بعد الى مطالعة وصف من هذا القبيل .

وللطبيعة والناس طرائق شتي فى محو آثار المدن المهجورة فالرياح والرمال والأمطار تنجح نجاحا كاملا أو ناقصا فى القضاء على بقاياها . والناس يهدمون القائم من مبانيها لينتفعوا بموادها البنائية فى انشاء معابدهم ومنازلهم الجديدة . وقد بلغت اللعنة على آلهة مصر القديمة حدا كان المصريون فيه يهيلون على البلد الدارس كل قاذوراتهم ، بينما هم يبتنون قراهم الجديدة من اللبن . فكان من ذلك تلك التلال العفنة التى تقوم دليلا على انكار

الشعب لماضيه المجيد ، ورمزا على حالة التدهور ووهدة الانحطاط التي انحدر اليها هذا الشعب فى حقيقة كبرى من تاريخه العجيب.

وفى سيلان المطرة المشجرة ذات الجو الرطب والتربة الكريمة يستولى الحرج الاستوائى على بواقى مدتها فيغيبها تحت طبقات من الأغصان المشتبكة ، والشجيرات والأعشاب الكثيفة . هكذا عفت آثار بعض البلاد الكبرى الواقعة وسط الجزيرة امثال « پولاناروا » و « آنوراداپورا » حتى كشف عنها المنقبون البريطانيون فى أواخر القرن الماضى .

ولقد وقفت بآنوراداپورا فى عودتى من الهند . وقضيت صباحا أجوب وسط ما كشف عنه الأثريون من عاصمة سيلان القديمة ، واشرف على منظر ذلك الصراع الدائم بين الطبيعة المجتاحة وبين جهد الانسان . فهنا انشأ « السنهاليون » عاصمتهم قبل أن تقوم لروما قائمة . وهنا كان مهد التبشير بالبوذية فى الجزيرة منذ أوفد الامبراطور البوذى العظيم « آزوكا » ابنه « ماهيندا » فى القرن الثالث قبل الميلاد بحمل رسالة « جوتاما » الروحية الى الملك حبيب الآلهة « ديفانا مپياتبسا » .

ومنذ ذلك العصر الذهبى للبوذية طفق ملوك سيلان البوذيون يقيمون فى « آنوراداپورا » القصور والمعابد . فكان هنا القصر النحاسى العظيم والمعبد الكبير « ماهاستوپا » وغيرهما من المنشآت مما التفت عليه الأغصان والأعشاب كأذرعة الأخطبوط ، وامتصته امتصاصا .

وما انقذه الأثريون اقل من أن يرسم صورة لتلك الحاضرة الكبرى ، ولو أن فيما نراه اليوم من عمد ودرج وأركان دليلا على ما وصل اليه فن الزخرف والحفر من الرقة وسلامة الذوق .

وقد وصف « فان هين » الفقيه البوذى الصينى الذى زار « آنوراداپورا » فى القرن الرابع بعد الميلاد كيف كان يجىء اليها « كل من استضاء بنور البوذا » ليساعد فى تمهيد الطرق وزخرفة المنعطفات ونثر الأزهار واطلاق البخور والأعطار فى مناسكها ومعابدها . وكيف رأى قاعات الوعظ الكبرى تقوم عند تقاطع طرقها المستوية المستقيمة .

واكثر ما استرعى بصرى وسط الركام ، صناعة المثال فى تصوير الطيور والفيلة واقامة الصور البارزة لحرس المعابد . ولقد لمست روحه الصافية التى أوحت اليه بتماثيل « البوذا » جالسا القرفصاء وقد علت وجهه ابتسامة هادئة تضفى على الطبيعة حوله سعادة ، وتفعم كيان الناظر هناء داخيا .

والحق أن هذه الابتسامة ، شعاع السريرة الآمنة المطمئنة ، ووقفة « التماثيل الحارسة » بباب المناسك أشرقت أساريرها بابتسامات شبيهة ، وتلك المظلة الحجرية وسط الحرج لا يعرف عنها ان كانت مأوى لناسك أو منبرا لخطيب ، هى كل ما فزت به فى تجوالى بآنوراداپورا . فالفن البوذى غريب عنى ، والمدينة المدفونة لم يبق منها كثير . ولكن ابتسامة البوذى وحراس معابده ومناسكه ومظلة عباده ـ بل ومظهر الطفولة فى رهبانه ذوى الازارات الصفراء والبرتقالية ـ كانت أكبر عون لى على فهم البوذية وعطفى على تعاليمها . فهى حركة تحرير كبيرة من الارهاق الهندوسى كما كانت المسيحية حركة تحرير الطبقات المبذولة فى الامبراطورية الرومانية .

وقد يعسر على من يزور المعابد البوذية الحديثة أن يحس خلال التعقيدات والاضافات والحليات التى اغدقها البوذيون على معابدهم فيما بعد ، بذلك الصفاء والهدوء الذى شعرت به حيال

الفن البوذي فى عصره الذهبى . هنـــا فى « آنوراداپورا » رأيت الصلة واضحة بين جلســة البوذا وابتسامته وبين كل قوس من أقواس الزخرف وكل ركن من أركان المدينة المدفونة .

ولقد قرأت غير قليل عن مبادىء البوذية وحياة منشــــئها فى ضوء زيارتى لآنوراداپورا . لذا اصطدمت نفسى بمعبــد « السن المقدس » فى كاندى ، وقد عادت الى نقوشه الحائطيــة وتصاويره روح القلق والقسوة والتهديد بالعقاب . وكأنى بالروح الهندوسية التى انتهت بالتغلب على البوذية وطردها من الهنــد ، وقد نجحت بعض النجاح فى التأثير على الفن البوذى المتأخر فى سيلان . ولكنه نجاح غير كبير برغم كل شىء فاننى حينما دخلت أول معبد بوذى فى كولومبو عقب مغادرتى الهند للمرة الأولى ــ وهو معبـــد حديث بعيد عن البساطة الأولى ــ وشاهدت تماثيل البوذا قائمــا وقاعدا ومضطجعا ، وتنشقت رائحة الياسمين الذى يقدمه الزوار قربانا لـ « جوتاما » الحكيم ، شعرت كأن نسيما رقيقا يهب على أرجاء روحى وقد تفتحت شرفاتها واستنارت بعد الظلمة والاختنــاق فى المعابد الهندوســية .

اجل ، كانت البوذية حركة تحرير روحى ربما استطاعت أن تجعل من الهند « يابان » أخرى فى آسيا لو لم تتغلب الهندوســية من جديد على تلك البلاد التعسة . ومن رأيى أن نجاح اليابان يعود فى بعضه الى بساطة الديانة البوذية ، ومحافظة اليابانيين على تلك البساطة . فلست أتصور اليابان بالغــة ما بلغت لو أن العقــائد الهندوسية تنيخ فيها على عقول الناس ، وتخنق روح الحرية فيهم خنقــا .

شجرة البودى المقدسة

قادنى سائق الريكشو ــ أو حمــــارى الآدمى ــ الى شجرة « البودى » المقدسة خاتمة لطوافى هذا الصباح بآثار المدينة المدفونة « آنورادابورا » . وترك فيتونه الصغير وتبعنى الى حرم الجميزة التى تعد قدسا من أقداس البوذية ، يحج أليها اتباع «ساكيامونى» كما يحجون الى معبد « كاندى » حيث أودع سن البوذا ، أو الى قمة آدم فى سيلان حيث موضع قدم « جوتاما » الحكيم . الذى لم تطأ قدماه فيما نعرف أرض الجزيرة ، ولكنهم البوزيون يعتقدون بأن الفرجة الظاهرة فى احدى صخور قمــــة آدم هى أثر من آثار أقدام البوذا . كما يصر المسلمون على اعتبــارها موطىء قدم آدم بعد طرده من الفردوس . والهنــدوس على حسبانها ملمس قدم « براهما » فى احدى تناسخاته الأرضية .

وجميزة « أنورادابورا » نبتت من فرع شجرة « البــــودى » التى استنار البوذا بضوء العرفان وهو يستفىء ظلالها ، فى يوم من أيام القرن الخامس قبل الميلاد وقد انتهى به المطاف الى مدينــــة « رجايا » من أعمال الهند الشمالية .

ومنذ أكثر من ألفى عام غادر الامبراطور البـــوذى « آزوكا » عاصمتـــه فى « پاتاليپورا » الى منبت الشجـــرة المقدســـة فى « بوداجايا » وصعد على كرسى من ذهب ليرسم حــول أعلى غصن من أغصانها دوائر بالدهان الأحمر . وما ان انتهى من رسمه حتى انفصل الفرع عن الأصل ، وسقط الغصن فى آنية ذهبية من صنع الفنان الالهى « فيزماكارما » . الذى تقمص فى صورة انسان ليعد عدة استقبال الغصن المقدس . وكانت الآنية ملأى بالطين مضمخة بالطيب .

وعهد الامبراطور « آزوكا » بالآنية وفرع شجرة « البودى » الى ابنته الأميرة الراهبة « سنجاميتا » فحملتهما الى جنوب الهند، وعبرت بهما البحر الى سيلان . وهناك هرع اليها الملك « تيسا » قبل أن تصل الى الشاطىء . وغاص فى الماء حتى رقبتـــه ، وحوله ستة عشر رجلا يمثلون جميع الطبقات . فتلقوا الهدية العظمى من يدى الراهبة الملكية . حملوها الى « آنورادايورا » . وهنـــاك قام الملك بغرس الغصن المقـــدس فى الموضع الذى ذهبت لزيارته هـــذا الصـــباح .

وأحنى سائق الريكشو رأسه خاشعا عند الباب المقفل حول جذع الشجرة القديمة ولم ينبس بكلمة . وقد شعرت فجأة كأن يدا سحرية قد ضربت بينى وبين حمارى الآدمى جبلاى وسطت وهاداً .

ما شجرة بين الأشجار لولا الروح التى تنفخهـــا العقيـــدة البشرية فيهـــا ؟ وما السماء والأرض ، والمـــوج المزبد يتكسر على الشاطىء الرملى وبين جذور « المانجروف » ، وما القمر ينعكس فى مرآة البركة الهـــادئة تحيطهـــا أشجار الخيزران ، لولا النفس الحساسة تتصل اتصالا غير مفهوم بما لا تفصح عنـــه الطبيعـــة

بلسان ؟ فقد لا تكفى العين ولا الأذن لادراك روح الجمال . فهـذا الزنجى يقف امام تماثيل « برنينى » أو تحت سقف « السستينا » فلا يفهم ولا يحس بما تنطوى عليه أعمال الفن الخالدة من جهـاد البشرية نحو أعلى ما يطمح اليه الروح الانسانى . بل هذا الجلف ينظر فى تبليم السائمة الى لوحة « ريمبرانت » فاذا حاول أن يفهم تساءل عن ثمنها فاذا ما صفعت أرقام الجنيهات أذنه راح يقـدر ثمن الاطار ، ثم طفق يفتش فى صفحة الصورة عن أحجار ومعادن ثمينة تناقل تلك الجنيهات العديدة .

لوحة « ريمبرانت » هذه ، وشجرة « البودى » المقدسـة ، هما قطبا الاحساسات الانسانية . فالعقـائد للنفوس البسيطة والانسانية الدنيا هى والاحساس الفنى عند أهل الثقافة العليـا طريق واحد لنتيجة واحدة : هز النفس البشرية هزا يرفعها عن الاحساسات المادية وطلاب الجسد الى الذروات الفكرية التى هى ملك خاص لهـذا الحيوان المفكر ، حظى بهـا دون رصفائه من الحيوانات الأخرى .

وأنا أمام شجرة « البودى » المقدسـة شبيه بالزنجى أمام عذارى « رافاييل » . فماذا يهمنى أن تكون هذه الشجرة المحافظة بكل مراسم التقديس ، الشجرة التى يدخل البوذى الى حرمهـا خافض الراس اذ يشعر دون تفكير بأنها مهبط الحكمـة . وبأن أغصانهـا تحفظ بالناموس الذى نزل ذات يوم من أيام القـرن الخامس قبل الميلاد على البوذا وهو مضطجع تحتها ، ماذا يهمنى أن تكون فى أصلها غصنا من أغصان الشجرة الأولى ذاتها حملتـه الراهبة « سانجاميتا » لتغرسه فى هذه البقعة من سيلان منذ أكثر من الفى عام ، هذه البقعة التى وطأتها قدماى فى هذا اليوم من أيام فبراير ١٩٢٤ بدون تحمس ؟ ماذا تهمنى الشجرة الأصـلية أو فرعها ؟ وماذا عساى فاعل بنفسى الباردة أمام أقدام أشجار العالم .

وربما كانت أعظمها تقديسا ؟ أنا الى السائق البوذى اليوم فى ظلال هذه الشجرة الشامخة الفارعة ،كالزنجى يصعد اكمة «الأكروپول» الى جانب ارنست رينان . هو ـ سائق البوذى ـ نفس رفيعة تنسى فى ظلال الشجرة المقدسة الجثمان احتياجاته المادية . وأنا بهيم يشكو هجير سيلان وتعب التجوال ، ويفكر بميعاد القطار الذى يعود به الى كولومبو ، وبالوقت الذى سوف يستغرقه فى الغداء ودفع حساب الفندق . هو ـ ارنست رينان ـ نفس رفيعة تسجد للروح الذى أوحى الى الفنان باقامة « الپارتينون » معبدا للحكمة والجمال ، ورمزا لأجمل عصور البشرية وأسلمها تفكيرا وأقلها عبودية . بينما الزنجى ينفض براغيثه وهو يقرض رغيف خبزه . ويلتهم بنظره الشهوانى امرأة بيضاء تتسلق الصخور فتكشف عن بعض فخذيها . ضع هذا الزنجى أمام الهه الصلصال أو الخشبى فاغر الفاه زاغرا بعيون مطلية بالأبيض والأسود والأحمر ، والى جانبه رينان يتأفف من حرارة الشمس الاستوائية ولدغ الهوام . يرتفع الزنجى فى درجات البشرية تبعا لتجرده أمام الهه بينما يكاد يهبط رينان الى مرتبة الحيوان لو لم يدرك بعقله الكبير معنى خشوع البربرى أمام صنمه .

يخطىء من يقصر وظيفة العقائد على الاصلاح الاجتماعى بحكم ما تنطوى عليه من عقاب وثواب . يخطىء من يقصرها على نوع من الحماية يلوذ بها المرزوء والملهوف . هى ذلك بلا شك ، ولكن دورها الأكبر هو الارتفاع بالحيوان الانسانى ـ حتى فى أحقر وأوضع ممثليه ـ الى عالم كله سمو وتجرد عن طبيعته الحيوانية فى لحظات معدودات من حياته البهيمية . ربما كانت للحيوانات لغة للتفاهم ، والحيوان يتقوت ويتنفس ويتناسل ، ويستطيع ضربا من التفكير الغريزى ربما كان له فى وساطة أهمية تفكير الانسان الفطرى . ولكن ما اختص به الانسان ، هو امكان نفسه أن تهتز هزات خاصة

لا علاقة لها بالتفكير ولا بالاحتياجات المادية المؤمن فى حضرة الهه ، والملحد أمام مظاهر الفن العليا .

لذا نعرف لأحط الأجنـاس البشرية ديانة ما . وليس ينتظر أن نكتشف يوما حتى لأرقى أنواع القردة معبدا أو صنما .

وابتعدت عن الشجرة المقدسة عائدا الى الفنـــدق فى فيتون يجره حمار آدمى ، ولكنى كنت أقل غلواء وأكثر حكمة .

بـــريـــم

محطة فحم عند مدخل باب المندب ، مرفا طبيعى على المضيق بين جزيرة « بريم » وشاطىء شبه جزيرة العرب ، جزيرة بركانية سوداء اللون ، متجهمة كأغلب الجزائر فى جنوب البحر الأحمر . أما قرية « بريم » فهى أكواخ أو زرايب آدمية قرب الشاطىء ، وبضعة « بنجالوات » فى أعلى الموقع ، تحاول ان تمت الى الاناقة بأسباب لم تكن ظاهرة لى على الأقل .

أول ما أضع قدمى على الأرض منذ تسعة أيام حين غادرت السفينة شاطىء مصر فى الغردقة . وقد غدت السفينة مسكنى ومحل عملى فى الاسماعيلية حيث ركبتها منذ عشرين يوما ، وبقيت كذلك حتى غادرتها فى الاسكندرية بعد تسعة أشهر . ومع ذلك كانت التسعة أيام أصعب وأشد أيام التسعة اشهر .

أحاط بالسفينة « بمبوطية » من الصومال والعرب ، ونشروا بضاعتهم على ظهر « هورياتهم » : مأكولات محفوظة ، وعلب سجائر انجليزية ، وفانلات وأحذية ، وأسماك وبنطلونات ، وقطع من شعاب مرجانية ، والعظام الفكية لوحوش البحر بأسنانها . وعصى صنعت من سلاسلها الفقرية .

اللغة العربية التي يتكلمها الناس هنا أقرب فهما لي من لغة تونس او الجزائر على الأخص والصومال قوم يحملون رؤوسهم على هامات مرتفعة في كبرياء كأنهم قياصرة سود اضطروا الى امتهان حرف وضيعة مثلما حدث فعلا لأمراء روسيا القيصرية .

أما الهنود فعلى خلاف ذلك ، يسيرون منكسى الرؤوس ، ويتقدمون اليك في حركات كلها ذلة تتقزز منها النفس ، وتزيد في تقززها ملابسهم . فبينما الصومال يلبسون الجلاليب البيضاء ، ترى الهندي يلبس قميصا افرنجيا بلا ياقة ، ويترك أذياله طليقة خارج البنطلون أو المئزر ، فتظهر في جوانبها تلك المثلثات المقطوعة التي تجعل منظر القميص الافرنجي مرسل الأذيال من أسخف وأقبح المناظر .

وقد اضاف صاحب البار الذى دخلنا اليه على هذا اللباس طربوشا بنيا داكنا . اما الطربوش فيدل على أن الرجل غير هندوسي . أما اللون البني فلم افهمه حتى سألت الرجل عن ديانته وعرفت بأنه مجوسي (من أتباع زرادشت) . فاللون البني الغامق يميزه عن المسلم ذوى الطربوش الأحمر .

البار مقفر الا من جماعتنا وجماعات الذباب جاء يشاركنا شرابنا وكان بيرة ساخنة قدمها لنا ذو القميص المرسل . واضطررنا الى وضع قطع من الثلج فيها فأفسدت طعمها . وقد كنا نحلم اثناء الأيام التسعة ، الشاقة في رطوبتها المرهقة وحرارتها المميتة ، بشوب من البيرة العنبرية المثلجة ، تعلوها ياقة بيضاء كالشهد . وبيرة هذا المجوسي على غراره . لا ياقة لها . ومع ذلك تقبلناها وشربناها ، فشيء أفضل من لا شيء ، وهذه بريم الموحشة ظهرت لنا في ذلك المساء كأنها جنة الميعاد .

كل شيء نسبي ولا ريب ! بعض الناس اذا قال هذه الجملة حاول ان يفهمنا أنه تتلمذ على اينشتين ، وأنه واحد من عشرة على الكرة الأرضية فهموا نظريته . نصيحتى لاخوانه أن يشجعوه على اعتقاده ، فهذا ضرب من الاحسان لا يكلفنا كثيرا . أنا فى هذا نوع من روكفلر .

كل شيء نسبي ولا ريب ، فلو انى رأيت قاعة البلياردو بالكلوب البريطانى هنا فى ظروف أخرى لضحكت من براءة الصور التى تزين الجدران : رجل أصابه دوار البحر أثناء مغازلته فتاة . سيدة تلبس مودة ١٩٠٠ يحتضنها كولونيل على المعاش اصلع الراس . مناظر غزل ربما بدت جريئة فى وقتها ولكنها تبدو لنا الآن بريئة الى درجة يسخر منها المراهقون .

ونحن هنا فى كلوب انجليزى . أى فى ندوة السرور والمرح البريطانى ، وبيت النكات والبشاشة الموقوفة على الأعضاء
For Members only

ولقد كان لى الشرف الرفيع بزيارة بعض هذه النوادى الانجليزية فى رحلاتى ورأيت اقرب المجتمعات تشابها عندنا هى ... المآتم !

ثم ان عينى وقعت على هذه الصور « الخليعة » لأول مرة وانا فى ركن من قاعة الكلوب تحول لى كنيسة مؤقتة . فلقد كان الخبر الهام الذى أسر به حاكم الموقع الى رئيسنا هو أن طيارة عسكرية حملت من عدن قسيسا انجليكانيا ليقيم الصلاة فى النادى البريطانى ببريم ويعود فى اليوم التالى . وقد ألقى الخبر الى رئيسنا فى لهجة من يقول : اننا نترقب الليلة هجوما عنيفا من بعض القبائل الثائرة .

واخفى الرئيس عنا الخبر حتى الشوب الثالث . ثم أبرقت أساريره وأعلننا به خلال غمام الذباب قائلا :

ـــ هيا بنا يا أولاد ، نقد حانت ساعة الصلاة .

دخلت القاعة واتخذت مقعـــدى فى الصف الثانى . وجعلت اهمهم وأحنى رأسى مجاملة لاخوانى . ووزعت علينا كتب الترتيل وهى ما أستريح له فى هذه الحفلات ، لأنى بعد شطرين من الأنشودة استطيع أن اشترك فى الغناء مع شىء من النشاز لا خطر منه على متانة الأبنية .

وبينا أنا فى خشوعى اذ لاحت منى التفـــاتة الى حائط المكان فوقعت عيناى على تلك الصور الخليعة مودة ١٩٠٠ . ومع أنهــــا خلاعة بريئة باردة الا أن وقعها فى تلك اللحظة كان كما لو أخرج لنا استاذ الديانة صورة راقصة تلبس ملابس حواء فى الفردوس .

ولقد تصورت رئيس النادى يفكر فى تجديد زينة المكان فيرفع هذه الصور ليضع بدلها لوحات منتخبة من مجلات « سكس أپيل » و « پارى پليزير » . ماذا يكون موقفى حينئذ فى حفلة الصلاة التى طار لها الانجلبكانى خصيصا من عدن ؟

وانتهت الصلاة بالدعاء للملك والأسرة الملكية البريطانية .

ثم رفعت المقاعد وعاد الكلوب كلوبا . وقدم لنـــا الوسكى بالصودا وتسامرنا حتى منتصف الليل مع جميع أفراد الجاليــــة البريطانية فى « پريم » . . . . وعددها عشرة !

هذه هى « پريم » احدى حلقات التموين الهامة فى سلســـلة المواصلات الإمبراطورية .

ويحكى لك الانجليز ، على سبيل الدعابة وبشىء من الفخر ، كيف احتلها آباؤهم فى حقبة من التاريخ لا أعرفها :

عرف أميرال فرنسى بأهميـــة هذا الموقع ـ وكان يعرف باسم « ميون » فى ذلك الوقت ـ فاتجه بسفينته شطره ، ومر فى طريقه

بعدن فدخلها . واحتفى به الحاكم البريطانى فأقام له حفلة ساهرة .. فيها انفك عقال الألسن ، وعرف الحاكم بهوية الضابط الفرنسى فأرسل أوامره سرا الى رجاله ليسافروا حالا ويحتلوا الموقع .

ولما أن وصل الأميرال الفرنسى الى « پريم » بعد أن ودعه حاكم عدن وداعا شائقـــا ... وجـد « اليونيون چاك » يرفرف فوق الرابية السوداء !

قال الســير تشارلس ناپير ـ الرجل الذى كسب مقاطعــة السند لبريطانيا وضمها الى امبراطورية الهند ، وكان أول مندوب سام لهـا :

« لا حق لنا فى الاســتيلاء على الســند ، ومع ذلك سوف نستولى عليها مع ما فى هذا من سفالة ولكنها سفالة انسانية نافعة ومفيدة جدا » .

ذهب المعز وسيفه ! وقساوسته الأنجليكان ايضا يا «ألبيون» !

خوريا موريا

أكتب هذه الكلمات وقد انقضى بعض زمن على زيارتى جزر « خوريا موريا » ولا أكاد أصدق ناظرى . وكأنى ببصيرتى تتجاوز حقوقها وتطغى على الرؤية المادية . مجموعة من الجزر على مقربة من شاطىء حضرموت . المسكون منها واحدة هى جزيرة « الحلانية » مجموع سكانها نساء ورجالا لا يتعدى منصر « على بابا » يعيشون فى بضعة عشر كوخا من حجارة رص بعضها فوق بعض بغير خرسانة وغطيت سطوحها بأعشاب البحر المجففة . لا زرع ولا ضرع . عين ماء آسن لا ثانى لها تروى ظمأ عرب الحلانية . وبضعة حجارة تحيط مصلاهم وأخرى تدل على موتاهم . لا هم فى طريق قوافل أو بواخر، ولا هم مستطيعون التجوال فى « هورياتهم » خارج الجوانات المحمية حيث يصيدون السمك بالحراب . بينهم وبين العمار — وأى عمار أفضل من الخراب ؟ — سفر أيام وليال تقل وتكثر تبعا للريح تملأ شراع الملاحين الغرباء يمرون بأعراب « الحلانية » فيقايضونهم على أسماكهم الجافة بخبز وأرز .

دخلنا ذات عصر بين جزر « خوريا موريا » وألقينا مرسانا أمام « الحلانية » . وكنت أرقب الشاطىء بمنظارى فرأيت راية حمراء وقف جوارها رجل . وركبنا اللنش لننزل بأرض الجزيرة . ولم

تكن الراية سوى شال عمامة شيخ « الحلانية » نشره فوق عكازه . واجتمع حوله بضعة أفراد حفاة نصف عراة واسعى المحاجر هابطى الوجنات ، تبرق عيونهم جوعا . كانوا رجال حكومة « الحلانية » . فهذا الكبير الرأس المقطوع الأذن هو وزير الحربية ولا ريب ، فهو قلق يكشر عن أنيابه بلا سبب واضح . أما هذا الربعة الحديد البصر يحمل حربة الصيد فلعله وزير الاقتصاد . ويظهر أن الشيخ يجمع الى رئاسة الحكومة وزارة الأديان والصحة والمعارف والخارجية .

وقد اجتمعت حكومة « الحلانية » فى أصيل هذا اليوم على شاطىء ثغرها المنيف لمفاوضة هامة مع قبطان سفينتنا موضوعها « رغيف عيش نتعشى به ! » وقمت أنا بمهمة الترجمة بين شيخ العرب و القومندان الاسكتلندى . ولعل الذكاء المصرى ـ وهو الذى اعتدنا أن نصفه للشهود دون أن نوضح صراحة اننا نشهد به لأنفسنا ـ كان عونى على أعمال الترجمة أكثر من لغتى العربية . فهذا الشيخ ـ أو هذا الرئيس حكومة ـ يتكلم العربية بلهجة قحطانية أو حميرية أو حضرمية . ولما كنت ضعيفا نوعا فى فهم اللهجات ـ وهذا برغم معرفتى المشهودة باللغة العربية ! ـ فقد اعتمدت على نظرى أكثر من سمعى فى فهم ما يقوله شيخ « الحلانية » . ويقينا كان يطلب منا رغيف عيش يتعشى به ، فالحركات التى تصاحب أشباه قول « عشانا عليك يا رب » هى نوع من « اسبيرانتو » أبكم سهل على مهمة توصيل رغبات الشيخ الى القومندان . واتفقنا على أن نزور مملكته أولا ثم نعود به الى سفينتنا لنعطيه مما أعطانا الله ، وهو أقل من القليل فى ماخرة العباب المسماة . . التى تشارك المعيدى فى صفته المشهورة .

أما وقد وصفت المملكة ووزراء المملكة ، فلا أرى بى حاجة الى وصف بقية الأربعين نفسا الذين يتكون منهم شعب « الحلانية » سوى أن النساء محجبات مقنعات . وهى حالة تقر بها أعين أهل

التقاليد عندنا ، أو هى تثير أشجانهم وتذكرهم بعهود مصر السعيدة حين كانت حالة نسائنا على غرار حالة نساء « الحلانية » من الرقى التقليدى . ولقد رغبت رغبة صادقة أن يكـــون أنصار تقاليدنا المجيدة معى فى جزيرة « الحلانية » . فهى فرصة لى لا يجود الزمان بمثلها اذا استطعت أن أحشد جموعهم فى هـــذه الجزيرة القاحلة ليقيموا فيها بلا رجعة ، كما فعل الأتراك بحيوانات معروفة ضاقت بها شوارع استانبول فحملوها الى جزيرة غير مسكونة !

مضى على آخر سفينة وقفت بجزيرتهم خمسون يوما . وقد فرغ خبزهم وأرزهم فهم لا يأكلون منذ أسبوعين ســـوى السمك المشوى . واذا قدر لهم أن ينضب معين بئرهم الوحيد فهم واجدون فى رحمة الله الواسعة وجنات نعيمه ، ما يعوضهم خيرا عن دنيـا « الحـــلانية » القفرة المزدولة . كما وجـد قبلهم سـكان جزيرة « السوداء » من جزرهم حين ماتوا عطشا فى حقبة من أحقـــاب تاريخهم .

قلت انى وأنا أكتب هذا تركت جزر « خوريا موريا » ورائى ولا أكاد أصدق ناظرى وكان بصـــيرتى تطغى على رؤيتى المادية للجزيرة . فالحلانية وسكانها الأربعون تركوا فى ذاكرتى ما يتركه الحلم المفزع . لأنى كلما استعرضت ذكراهم فى نفسى خيل الى أن عين الماء الوحيدة غاضت ولم يبق من سكان « الحلانية » سوى أربعين هيكلا عظميا مبعثرة على الشاطىء الرملى ، حول راية حمراء هى عمامة الشيخ كان قد نشرها تستجدى الأفق سفينة عابرة .

وهواحساس شبيه بهذا يتولانى كلما ذكرت زيارتى لجزيرة « سان » أمام فرنسا الشمالى الغربى . فقــد رأيت هناك جزيرة منخفضة يعيش بضعة آلاف من أهلها تحت رحمة موجـــة مدية تجترفهم وتترك جزيرتهم لا أثرا ولا عينا .

وهناك احساس ضيق يتولانى غير مسبب عن هـــذا الفزع الخيالى . وهو ناشىء عن عدم توصلى الى فهم الدافع لهذه البشرية أن تصر على العيش تحت سيف «دامو قليس» . تلك القرى يحتضنها « سترومبولى» و « كاركاتوا » ، وهى آمنـــة الى ضـــمة البركان الغادرة بعد أن عرفت بأمر تدميره المرة بعد المرة ، لماذا تعود الى الانشاء والبناء حيث فغرت الأرض فاها وصبت البراكين حممها ، وأطلق الأقيانوس طوفانه ؟ فلا أحير جوابا . ثم تدق كلمة « الحياة» على باب فهمى تستأذننى أن تكون جوابا على سؤالى فلا آذن لها . وكيف تكون الحياة وقوة الحياة قصيرة النظر الى حـد أن تورق فى ميدان الموت الدورى ؟ ثم يتراجع الانسان العاقل امام هذا الخاطر: الحياة قوة شاملة جامعة . وما العقل الا من بعض مظاهرها . فهى ليست مضطرة الى التفكير ، وانما هى مجبورة على أن تحتل فراغ الموت . وأكثر المواضع احتياجا لها بالذات هى المواضع التى يتنازعها الفناء والعدم .

الا أنه وقـــد نفسر عودة الاناسى الى « سان فرنسيسكو » و « مسينا » و « نابولى » و « جواتيمالا » بما يجدونه فى هـــذه البقاع من أسباب الثروة ، وهم فى ذلك مدفوعون بذات الجبرية التى كانت الأساس فى انشاء هذه المدن ، أنى لى أن أفهم سر وجـــود منصر « على بابا » فوق جزيرة منسية من الآلهة والبشر فى جنوب شبه الجزيرة القاحلة الفقيرة التى اندثرت فى رمالها وكهوفها المخبفة عاد وثمود وغيرهم من العمالقة .

سألت الشيخ عن البلد الذى جاء منه . قال « من مربط على شاطىء شبه الجزيرة » ، وعما اذا كان يسافر من اهله كثير اليهـا فأجابنى « أى نعم ، يسافر الشاب ليتزوج منها ويعود بعروسه الى هنا فتبقى حتى تموت » .سألته « ولماذا لا تسافرون جميعا الى مربط ولا تعودون ؟ » وأنا افـــكر فى نفسى : ليست مربط باريس ثانية

ولا ريب . وليكن عدد أهلها بضعة آلاف يعيشون فى فقر مدقع . ماذا يضيرهم أن يزيد تعدادهم أربعين نفسا ؟

وهنا قد يكون الشيخ اجابنى ولم افهم . او انه هو نفسه لم يفهم فلم يجبنى . وكل ما أذكره هو أنه صوب بصره نحو السماء ، ورفع يده فى حركة مبهمة عريضة ضمت أرجاء السماء والأرض . ماذا قال أو اراد ان يقول ؟ اهى فطرة خاصة لا يستطيع التعبير عنها وانما أنا المتحذلق أترجمها له هكذا « نحن فلاسفة نحب الفضاء والحرية » ؟

ماذا يقول الشيخ المحب للحرية لو أنه تعلم بعض العلم فطالع الأطالس الجغرافية ؟ لعله آخر من يفكر بأن يرى جزر « خوريا موريا » — وسكانها الأربعين — وقد لونت بلون الامبراطورية التى لا تغرب الشمس عن املاكها . ليتنى أخبرته بهذه الحقيقة ، وعرفته بأن فى مصر أناسا مهمتهم المراجعات العلمية على صفحات الجرائد ، وأنه ليكفيه أن يرسل خطابا الى احداها فيتلقى وابلا من التصحيحات الجغرافية ، لو أن كل كلمة منها جندى مسلح لاستطاع شيخ « الحلانية » لا أن يصحح لون جزيرته على الخريطة فحسب ، بل أن يحرر جزءا هاما من شعوب الأرض .

أبراج السكون

« بومباى » حاضرة كبرى اجتمع لها من ضروب القبح المعمارى ما يكفى أن يطمس على جمال فلورنسا وروما وباريس وفيينا . ولو ان طيرا أبابيل تكفلت بعملية توزيع بعض مبانى بومباى فحملتها والقتها على هذه المدن فانه يمكنك أن تقول يا رحمن يا رحيم على فن العمارة فى حواضر الجمال . طراز عماراتها اثر من آثار العهد « الفيكتورى » امتزج أقبح امتزاج بالفن الاسلامى الهندى . فكانت القباب والأعمدة التى تقذى العين بصلفها وغطرستها ولا منطقيتها . وفندق « تاج محل » المعدود من أفخم فنادق العالم هو سيد القباحة ... وتاج رأسها فى مدينة بومباى عاصمة القبح فى العالم .

وفى بهو الفندق أسرت عينى فتاة مجوسية . والمجوس اتباع « زرادشت » خرجوا من ايران بعد الفتح الاسلامى واستقروا فى بعض مدن الهند . وهم أهل جاه وثراء ، يمتلكون المصانع والمصارف والمتاجر فى بومباى ، وتتكون منهم ارستقراطية مالية فى بلد المال . بيض الوجوه رقيقو الحاشية ، تمتاز نساؤهم بحسن الذوق فى ملبسهن ، فلا يتخيرن تلك الألوان الفاقعة التى تتكالب هى والأعطار والبخور لتوقعك فى شبه اغماء مزمن طول اقامتك فى الهند والمجوسيات برغم ارتفاع ثقافتهن احتفظن « بالصارى » « أو

الملاءة الهندية » ، وهـــو عرض من القماش يأتزرن به مبتدئات بالساقين ثم يرتفعن به فى دورات حلزونية حتى ينتهين به الى مافوق الخصر ويتناولن طرفه ليكون غطاء للرأس مارا بالكتف والذراع . اليسرى ، بينما تبرز الكتف والذراع اليمنى ، فيبدو النحر والصدر خارج صديرية موشاة . كذا كان هندام الغادة المجوسية التى رأيتها تدخل بهو « تاج محل » فى تلك الليلة ، رافعــة الرأس ، ممشوقة القد فوق حذاء من الطراز الأوربى عالى الكعب ، ســوداء الشعر بضة الأعطاف ، بيضاء الوجه واسعة العينين ، تشرق فيها حدقات عسلية جريئة صريحة غير رجراجة . هذه « المادونا » عبادة النار كانت كفيلة وحدها بأن تنسينى قبح الفن المعمارى فى بومباى ، او لم تختلط ذكراها فى مخيلتى بعــادة الدفن عند المجــوس اختلاطا بسيكوپا لوكوجيا يجعل الطبيب النفسانى أولى بقراءة صفحتى هذه من أى شخص آخر . وكلمة الدفن هنا استعملت فى أوسع معانيها اذا كان لها أن تعنى « التصرف بأجساد الموتى » .

فالمجوس لا يدفنون موتاهم ولا يحرقونهم ... انما يتركونهم للعقبان تنظف عظامهم تنظيفا .

أما كيف اختلطت ذكرى الحسناء المجوسية فى مخيلتى بعــادة الدفن عند أتباع « زرادشت » فذلك عائد الى أننى : كسائح من السائحين ، ارتقيت ذروة تل « ملابار » وسط الرياض الباســمة لأرى « أبراج السكون » تتوج أعلى موضع فى بومباى . والكتـــاب الدليل يوصينى بهذه النزهة عنــد الأصيل لأتمتع بـ « پانوراما » المدينة ، ولأنه الوقت الذى ينقل فيه المجوس موتاهم الى « أبراج السكون » .

وبعد الصعوبات المعتادة عند باب المدافن ــ وعقدتها فى جميع بقاع الأرض ليس لها سوى حل واحد ، هو قطعة من معدن ثمين أو رخيص نقش عليها وجه ملك او رمز سلطان ــ استطعت أن أدخل فى

حرم « أبراج السكون » ، لا فى الأبراج ذاتها حيث لا يسمح بدخول انسان سوى الحانوتية . وقادنى واحد من سدنة « معبد النار » الى بهو أقيم فى جانب منه نموذج مصغر للأبراج .

ـ يدخل حاملو الجسد هذا الباب . أما أهل الميت فلا يلمسون فقيدهم خشية الدنس ، ولا هم يجتازون باب البرج الى داخله . ويقفل حملة الجثمان الباب خلفهم ، ويتجهون نحو واحد من هذه التوابيت المحفورة .

ـ لست أرى توابيت .

ـ الا ترى هذه الصفوف الثلاثة من حفرات تحيط البئر المستديرة وسط البرج ؟ هنا يوضع الجثمان . فاذا كان لرجل وضع فى الصف الأول من ناحية السور ، واذا كان لامرأة وضع فى الصف المتوسط ، واذا كان طفلا وضع فى صف الحفر الصغيرة التى تحيط البئر المتوسطة . وبعد أن يرفع الحمالون الكفن الأبيض عن الجسد العارى يخرجون من حيث جاءوا ويوصدون وراءهم الباب الحديدى . وهنا تنقض العقبان من فوق أسوار البرج ومن فوق الأغصان . ويتولى أسرعها العيون فيفقأها ، والمحاجر والخدود فيفرغها ، بينما تشتغل العقبان الأخرى بتجرير بقية اللحم عن العظم . وفى وقت يتراوح بين ربع ونصف ساعة ـ حسب شهية الطيور وتبعا للايراد اليومى ـ يعود العقبان الى الأسوار والأغصان تاركة هيكلا نظيفا . وتعمل الشمس والهواء والأمطار عملها فى الهياكل المكدسة طول العام فتفتتها وتجرفها الى البئر الوسطى حيث يحيلها الزمن ترابا أما الماء فينصرف من أربع قنوات تخرج من قاع البئر فى الجهات الأربع . ويمر فيها خلال مرشحات من الفحم البلدى والرمال الناعمة .

ـ لست أجد لهذه المرشحات فائدة تذكر بعد أن قامت الطيور الجارحة بمهمتهاخير قيام ... من الوجهة الصحية .

ـ فى ديننا أن الجسد هو دنس « أحريمان » عنصر الشر أما الروح فهى العنصر الطاهر ارتفع عن الجسد ليتصل بـ « ارموزد » . وطريقة التصرف بالموتى عندنا ـ الى أنها تقوم على أدق قواعد الصحة العامة ـ ترمى الى تطهير أمنا الأرض من اللوثة التى تحل بها لو أن قطرة من الماء الذى غسل الهياكل العظمية تصرف اليها دون ترشيح .

وخرجنا الى الحدائق الخلابة التى تتوج هامة تل « ملابار » فأشار دليلى الى برج منعزل وقال :

ـ هنا توضع أجساد المنتحرين .

ولكن بصرى كان زائغا بين اغصان اشجار اللبخ والجميز و « البنيان » والجهنميةمن ناحية ، وبين أسوار الأبراج من ناحية أخرى . فلم أنس أنى التقيت حين قدومى بأهل الموتى يتشحون بلباسهم الأبيض الناصع ، وعلى رؤوسهم طراطير ذكرتنى بخوذات حرس « فردريك » البروسى ، الا أنها أقصر منها كثيرا . وسمعت تصايح العقبان وهى تنقض من كل صوب على الفضاء الواقع فوق الأسوار لتختفى وراء هذه ثم رأيتها تعود الى مستكنها فوق الأشجار أو تحلق لحظةلتحط فوق الأسوار متثاقلة ، وكأنها ضيوف الوليمة يخرجون من قاعة المائدة فى طلاب المقاعد الوثيرة والقهوة والسيجار. ولمحت رجلا نائما تحت شجرة فسألت قلقا :

ـ اتطمئن الى نوم هذا الرجل هنا بين سمع هـذه العقبان وبصرها ؟

ـ لا خوف عليه .

ـ كيف لا خوف عليه ؟ واذا أخطأت التقدير فحسبته من نوع الرجل الذى تغذت به توا ؟

ـ هذه الجوارح أيها السيد لا تخطىء بين الجيفة والانسان الحى . ثم أرجوك أن تلاحظ بأن الميت الذى ترى أهله هناك لم يكن رجلا بل امرأة .

ـ لعلك عرفت هذا من السرعة التى عادت بها الطيور الى أسوارها وأشجارها ؟

ـ أنت واسع الخيال أيها السيد . ولقد أخبرتك بأن الوقت الذى تستغرقه فى « عملها » يتوقف على شهية الطيور فى الغالب .

ـ حسبت الطيور الجارحة على شىء من « الجالانترى » .

فقال دليلى وهو لا يحاول اخفاء تأففه من نكتتى الباردة التى لا موضع لها :

ـ انها يا سيدى جنازة فتاة من أجمل فتيات بومباى ، ابنة المستر « خوادينشاه » المالى الكبير ، ماتت فى ريعان الصبا .

ردنى دليلى الى الجد بقسوة لم يكن ليشك فى اثرها فقد تجهمت أساريرى لا اتباعا لقواعد اللياقة أو احتراما للموت ، بل لهذا التفصيل فى الخبر . ومهما حصنت قلبى بالفلسفة والتشكك ، وأيا كان فعل السنين فى احساسى ، فسأظل حتى الشيخوخة المتقدمة ضعيف الأعصاب أمام حادثين : امرأة جميلة أو غير جميلة ، شابة أو غير شابة ، تبكى بكاء هادئا ، مخلصة فى بكائها . وموت الشابة الجميلة فى بتولتها .

ولا اذكر جيدا اذا كنت رأيت المجوسية الحسناء فى بهو « تاج محل » مساء ذلك اليوم بالذات أو مساء اليوم التالى . وقد لبثت

اتطلع اليها طول السهرة بلاتحفظ مأخوذا بجمالها وحسن هندامها ، وكانت تلبس ازارا سماوي اللون موشي الأطراف بالذهب فوق شريط أسود . ولكن صفتين بارزتين تملكتا على حواسي فى ذلك المساء ، وعوضتاني خيرا عن منظر بنات « ألبيون » العجاف ، اللائى كن يملأن بهو الفندق (لماذا أفكر بالبسكليت كلما رأيت انجليزية قبيحة ؟) : القوام الأهيف ، والرأس المرفوع كأنه ملك فوق عرشه .

واذا أثقلت ذات مرة بأكلة هندية ، ولم أشفق على نفسي بما التهمته من توابل (يظهر أن الهنود يروضون أجسامهم على النار مقدما !) أصبت بتخمة جعلتنى أقضى ليلة تعرف عندى باسم « ليلة الكوابيس » لكثرة ما رأيت فيها من « بغلات العشر » وذوى الأرجل المسلوخة والعيون المشقوقة بالنكوسى . ولكن كابوسا واحدا ضرب مقاييس الفزع الذى قد تثيره كل هذه البعابيع . فقد رأيت كأنى أرقى تل « ملاربا » فى أصيل يوم ، وأعاد الحلم فى ذهنى بعض أدوار زيارتى المادية لأبراج السكون بدقة جعلته كالحقيقة . ثم رأيتنى أشيع نعشا مجوسيا وسط رجال متشحين بالبياض وعلى رءوسهم طراطير ذكرتنى بخوذات « فردريك » البروسى . وأخرج حمالة النعش الجثمان فى كفنه الأبيض . وفتحوا باب البرج . وتنحى أهل المائتة ــ ألقى الحلم فى روسى عن طريق غير جلى بأن الميت أنثى ــ ولكنى واصلت السير حتى دخلت البرج مع الحمالة ورأيتهم يضعون الجثمان فى حفرة من حفرات الصف الثانى صف الاناث ! ــ ويجردونه من كفنه .. واذا بها ذات الوجه الصبوح والقد المشوق ، الغادة التى استأسرت بلبى ليلة « تاج محل » . هى بذاتها وان كانت لقفلة العينين كالنائمة ولكن صفتين تملكتا على حواسى فى ذلك الحلم : القوام الأهيف ، والرأس المرفوع كأنه ملك فوق عرشه !

وهنـا أذكر أني صرخت وارتميت مغشيا على . والغريب فى الاحلام ازدواج الشخصية والحواس . فقد كنت عارفا تمام المعرفة أنني مغمى على ، وكأن هناك عينين وبصيرة تجردت عنى وجعلت تنظر الى على هذا الحال كأني شخص آخر . واذكر وأنا فاقد الوعى أني نسيت فتاتى ولم أعد أفكر الا بالعقبان الكاسرة وبأنها سوف تنقض على من بين الأشجار وأعالى السور تحسبنى « ايرادا » . ومع ادراكى لخطورة الوضع الذى أنا فيه ، ومحاولتى النهوض قبل أن تخطىء العقبـان مخبرى ، فان قوة خارقة ،كأنها بضـع صخور وضعت على صدرى ، كانت تحول بينى وبين القيام .

وصحوت تلك الليلة أتصبب عرقا . وكان البحر مضطربا بعض الاضطراب ، والأمواج تصدم نافذتى الزجاجية المستديرة فى شيء من العنف ، حتى لقد رأيت أن أؤمن على قفلها بذلك الغطاء المعدنى المسمى بالانجليزية « الأضواء المائتة » .

ولم أستطع منذ ليلة « الكوابيس » أن أفصل فى مخيلتى غادة « تاج محل » عن تل « ملابار » و « أبراج السكون » .

حجاج راميشقارام

هل تذكر حديث « مية المحياة » ؟ فقد امحت من ذكريات طفولتى حكاية عين الماء التى يصل اليها « الشاطر حسن » بعد أهوال ليملأ منها جرته ويختمها ويعود بها الى « ست الحسن والجمال » . ونسيت فوائد تلك المياه وشكل الجرة . ولكن بغرفتى آنيتان من نحاس كأنهما بقيتا لى من « الحدوتة » . واذا كان الأمر كذلك فهى أول مرة فيما أعرف تقص جدة على حفيدها شتى «الحواديت » ولا تعتذر اليه فى آخرها بالجملة التقليدية « وأدينى كنت عندهم وجيت . ولو ماكانتش طاقيتى مخروقة ، لكنت جبت لك فيها فتة ومسلوقة » . بل هى تلقى الى حجره بآنية من نحاس وتقول له « آدى الجرة اللى ملاها الشاطر حسن من مية المحياة ، جبتها لك أمارة ، يابن الأمارة » .

أقول لك ان اثنتين من هاته الأوانى النحاسية بغرفتى ، وقد وضعتهما على المكتب أمامى وأنا أكتب هذه الصفحة . كلا لم يعد بهما نقطة من « مية المحياة » الآن ، ففى الواحدة كما ترى بعض الماء القذر ، وأعقاب سجائر يوم عمل كامل

كعذارى فى الماء أظهرن بضا   سابحات به وأخفين بضا

وفى الثانية وردة أكثر احمرارا من وجنتيك يا جميلتى !

منقــوش على جوانب الأولى ثلاثة طواويس أدارت رءوســها لتنظف الريش حول منابت رقابها ، أما الثانيــة فهى عطل الا من خطوط متوازية فى وسط جسمها المنتفخ كالقرعة ، وحول رقبتها الصاعدة نحو فوهتها كزهرة اللوتس .

لو أن لهاتين الآنيتين روحا ولسانا فصيحا لتحدثتا الى كل يوم عن طرائق الأقدار بأكثر مما يمكن أن تتحدث به المسلة المصرية فى ميدان « الكونكورد » .

فقد امتلأتا ذات مرة « بمية المحياة » كلا لست ساخرا ! ارجو أن تصدقنى اذا علمت بأن كلا منهما تمثــل الهــدية المقدسة التى يحملها الهندوسى من « بنارس » على ضفاف « الكنج » فى شمال الهند ، حتى « راميشڤارام » فى الطرف الجنوبى لتلك البلاد التى تكاد تعادل قارة من القارات برامى أطرافها وتعدد أجناسها ودياناتها والسنتها .

طريق الحجيج الأكبر الذى يمر بالمعابد الكبرى فى « بنارس » و « پورى » و « تانجور » و « مادورا » و « راميشڤارام » وقــد أكون نسيت معبدا أو معبدين .

واذا كان الحاج يقضى فى العصور الحــديثة بضــعة أيام فى القطارات حتى ليبلغ غايته فى « راميشڤارام » ، فكم كان يقضى قبل مد السكك الحديدية ؟ كان الهندوسى يقتنى الجرة النحاسية ويترعها من مياه « الكنج » المقدس عند « بنارس » بعد أن يكون ودع أهله . فقــــد يندر أن يعود اليهم من حجيجه الطــويل ، وانما يعود ابنه الأصغر رجلا حنكته التجارب ، وسمت نفسه فى جيرة الآلهة . أو هو أيضا لا يعود اذا ما مسته القداسة فاستحال « يوجى » يتنقل من القرية الى القرية عارى الجسد طويل الشعر

والأظافر . يعيش بالقليل الذى يجود به عليه الخيرون ، ويقضى الأشهر صواما متعبدا فى كهوف الجبال أو منعطفات الطرق أو أبواب المعابد ، أنيس الأوابد والزواحف ، ومضيفة القمل والصئبان والهوام .

هذا اذا كانت الكوليرا وغيرها من الأوبئة لا تحصده ضمن من تحصد ، أو « الكوبرا » لا تصرعه فى دقائق معدودة ، أو أنه لا يرتمى تحت عجلات الا له « ياجانات » فتسحقه سحقا وتتلاشى روحه ، دون هوادة وبلا تناسخ ، فى تلافيف « النير ڤانا » الموعدة .

اما اليوم فقد تكفى الحاج أيام معدودات أو أسابيع ، يحمل اثناها جرته وقد أحكم ختمها بالقصدير حتى يصل الى « راميشڤارام » ، ويتقدم داخل الهيكل فى قدس الأقداس ، وينبطح على وجهه يتمتم تعاويذه وصلواته . ثم يقوم الى الصنم فيفض ختم الجرة النحاسية وينضحه بمائها المقدس .

وما يفعل البراهمة بآلاف الآلاف من هذه الأوانى النحاسية أفضل من بيعها لأمثالى من السائحين ؟ فاستعملها منفضة للسجائر أو زهرية ، وأضعها على مكتبى أستوحيها فصلا من كتاب رحلتى الهندية .

اشتريتهما نحاسا بالرطل ، وقد احتفظت فوهتاهما ببقايا القصدير ، وسدت يد الحاج ثقبا فى رقبة احداهما بالرصاص الذى لا يزال أمامى أثرا من آثار الورع وتقديس الماء الذى احتوته هذه الآنية .

لمن الصنم فى معبد « راميشڤارام » بطرف الهند الجنوبى ؟ وانى لى ان اعرف وقدس الأقداس حرام على غير الهندوسى ؟ واذا

كنت فى معبد « مادورا » قد استطعت أن أصل حتى باب الالهة « ميناكشى » ذات الثلاث نهود وعيون السمكة ، والمح فى الظلمة بريق الذهب والنحاس وضياء الشموع ، واشتم عبق البخور ، فاننى هنا فى معبد « راميشڤارام » لا يصرح لي بأكثر من ارتياد معابر المعبد وعرصاته وممراته ، وهى فدادين من الأرض تحيطها آلاف الأعمدة وآلاف الآلاف من التماثيل القبيحة المفزعة ذات الألوان الصارخة . وتقوم عليها قباب هرمية ناقصة « جوپورام » ذات أربع قواعد ، ترتفع الى أكثر من عشرين مترا فوق الأرض . يصيبك الدوار وانت تحاول أن تفحص بعض دماها وصورها وحلياتها وتماثيلها . ولقد عد أحد غلاة الاحصائيين التماثيل الزخرفية والصور الحائطية وغيرها فى معبد « مادورا » فكانت نيفا وثلاثين مليون دمية وصورة .

واذا كنت قد تمكنت فى « مادورا » من أن أصل حتى « الميضة » الداخلية التى تعادل عشرة أضعاف أكبر حوض سباحة شهدته ، ينحدر اليها الدرج من جوانبها الأربعة فى شكل أرصفة متعاقبة تسعى فوقها انسانية ملهوفة مرزوءة مقشرة دامية ، ذات بثور ودمامل وجروح، لتغتسل فى الماء وتبلبط فيه وتبقبق وتمخط، فانه لم يصرح لى فى « راميشڤارام » بالوصول الى حوض مائه رحمة من سدنة المعبد ومنة ، فمن ذا الذى يرى ميضة المعبد الهندوسى مرة ويرغب أن يجدد التعرف بها وبالمغتسلين فيها ؟

لمن الصنم فى معبد « راميشڤارام » بطرف الهند الجنوبى ؟ قيل هو للاله « شيڤا » وقيل بل للبطل « راما » فارس «الرامايانا» ومظهر من تناسخ « شيڤارام » . والواقع أن الصنم الأكبر فى قدس أقداس معبد « راميشڤارام » ليس لشيفا ولا لقمص من قمصانه . انما هو لعضو من أعضاء شيڤا يعد فى الهند من أقدس أعضاء هذا

الاله ، بل هو أقدس مظهر يعبد فيه شيفا ، حتى لقد عرف عن هذا الاله أن قال فيه « من شيفا ، وشيفا منه . من عبده فقد عبدنى » .

ويحى ! كأنى انحدر فى وصفى على درج « ميضة » المعبد لأصل الى تلك المياه الخضراء الآسنة حيث يغتسل من يتقزز البشر لمرآهم . مالى وقدس الأقداس ، ومالى وشيفا ؟ أو ما علمت بأن بعض التماثيل التى تزين فرنتونات وجوبورات معابد الهندوس مما قد يندى لمرآه جبين الفتيات ؟ أو ما ذكرت احمرار وجنات « الكويكر » الانجليزى وهو يحدثنى بما تصوره المناظر التى على أبواب المعابد ، ويصف لى حياة « الديفاداسى » راقصات المعبد الموهوبات لصنم الاله أو .... لسدنته الأحياء بالأولى ؟

ويحى اذا زل بى القلم فحكيت كيف دخل مجمع الآلهة على شيفا فى خدر زوجته الجميلة پارڤاتى ! ويحى اذا وصفت كيف صعر لهم خده وصعروا له خدهم وخرجوا غاضبين ، ففاه بما سبقت الاشارة اليه وكان الأصل فى تلك العادة الشائعة فى الهند ، والتى ينتسب اليها أقوى المذاهب الهندوسية ، وهو المعروف بمذهب « اللنجاميين » .

ويحى اذا اطبقت على هذه الأعمدة ، ونهشتنى انياب الـ « يالى» بعابع المعبد ونزل « جانيشا » الا له ذو رأس الفيل عن قاعدته فلف على خرطومه . قد لا أخاف الموت بقدر ما أخاف قذارة الزيت الذى نضح به الاله الفيل فى هذا الصباح ، وعفونة الماء الذى يغتسل فيه الهندوسى تقربا من الآله .

وقد يكفى أن أتذكر جولاتى فى معابد بومباى وكراتشى ومدراس ومادورا ورامشـقارام لتحتبس أنفاسى هلعا ، وكأن صـخرة « سيسيفوس » قد انحدرت من أعلى الجبل لتستقر على صدرى .

ويحى من تلك النفوس الشقية ،سجينة حلقة التناسخ تستغفر ذنوبا جنتها أجساد آلاف الاناسي والحيوان التى تقمصت فيها .

فهذا رجل دخلت المعبد فرايته منبطحا بطوله فوق الأرض الموحلة ، أمام الثور «ناندى » ، لا حراك به كأنه الجثة الهامدة . وعدت بعد ساعة من طوافى فرأيته فى نفس موضعه لا ينبس ولا يتحرك . ومن يدرى كم يبقى ممنطرا يستجدى رحمة « ناندى » بواب شيڤا وزوجته بارڤاتى ؟

وهذا برهمى غطى نفسه من أم رأسه حتى أخمص قدميه برماد نار اشتعلت تحت أقدام « جانيشـا » أو « كالى » أو المخيفـة « دورجا » .

ويحى ماذا غرر بى فجئت أجوس خلال هذه الانسانية الشقية تسعى حليقة الرأس الا من ذؤابة شعر تتدلى ، وتأتزر بأقمشـة بيضاء مشكوك فى بياضها ، وقد نقشت على جبينها رمز الاله شيڤا بالرماد أو بأصباغ حمراء وصفراء .

قليلا من النور أيها السادة ! هذا ما قاله «جوته» عند احتضاره أقوله أنا أيضا لمجرد أن زل بى القـلم وأنا أكتب عن رحلتى من جزيرة « كروشادى » الى معبد « راميشڤارام » فى جنوب الهند .

وهذا النور يبدو لى فجاة فى فقرة رائعة من « الأوذيسية » ذكرتنى بها عبادة رمز من رموز شيڤا ، وحكاية شيڤا حينما دخل عليه الآلهة فى خدر زوجته .

ذلك حين يعلم « هيفستوس » اله النار الأعرج الصناع بما أصابه فى زوجته « أفروديت » من اله الحرب « آريس » . فينصب حبائله وشباكه حول خدر زوجته ربة العشق والجمال ، ويجمع

آلهة الأولمب يشهدهم على خطيئتها « أما الالهات فليزمن خدورهن احتشاما » .

يتضاحك الآلهة ــ وهكذا أراد القدر للبشرية أن يضحك الرجال حين تخونهم زوجاتهم ــ من بلية « هيفستوس » . ويسخر بعضهم من موقف اله الحرب فى مخدع الهة الحب . ولكن « أپوللون » الجميل ، أبوللون رب القوس والقيثار والشعر ، يميل على اذن « هرميس » ويسر اليه :

ــ لتتمنى على القدر أن يمددك فى أحضان ڤينوس حتى ولو دفعت الثمن غاليا هذه الأحبولات تشد وثاقك ، وسخرية الآلهة بزميلنا آريس .

فيومىء اليه هرميس قائلا :

ــ لأكونن من أسعد الأرباب حتى لو وقعت فى أضعاف هـذه الأحابيل ، وفاجأنى فى أحضان ڤينوس كافة الآلهة والالهات !

من قصة خدر شيڤا وپارڤاتى خرجت عبادة تناسلية مرذولة .

ومن خدر افروديت وعشيقها خرجت عبادة الجمال للجمال

ومن خدر شيڤا خرجت العبودية والذلة .

ومن خدر أفروديت خرج الفكر الحر والاحساس الرفيع المطلق .

قليلا من النور أيها السادة ! فلم اك اقصد الا وصف حجيجى الذى عدت منه بآنيتين من نحاس احتوتا مياه الكنج المقدس ذات مرة ، واستحالتا فى غرفتى ، الواحدة الى زهرية ، والأخرى الى منفضة سجائر .

بت ليلى على خوان معمل أحياء مائية بجزيرة « كروشادى » ، وفى معدتى أكلة برهمانية قدمها لنا موظف بالمعمل ، ولم يتنازل أن يشاطرنا الأكل لأن مرتبته البرهمانية العليا لا تسمح له بمؤاكلة غير البراهمة حتى ولو نزلوا ضيوفا عليه . هى وجبة نباتية فرض فيها أن تعين على الورع والعبادة ، ولم أر أكلة أشد منها قدرة على الهاب الحواس بما بث فيها من شطة وقلفل وبهار .

بت ليلى وأنا فزع من الحشرات والزواحف ، أستعرض فى ذاكرتى جميع ما سمعت أو قرأت أو رأيت من ذوات الأربعة والأربعين والعقاب ، ومن ثعابين تقضم ، وحيات تلقم العيون من محاجرها ، وصلال ذات فحيح وقعقة .

وفى الصباح عبرت البحر بين الجزيرة وأرض الهند فى قارب يغترف الموج اغترافا . وفى المحطة أخبرنا بأن القطار الذى أتينا لأجله لا وجود له الا فى مخيلة البرهمى الذى حدثنا بأمره . وقال صاحبى الهندى : دعك وزيارة راميشفارام .

فأجبته فى عناد : أيكون معبد راميشفارام آخر سلسلة الحجيج الهندى على قيد سبعة أميال من هذه المحطة ولا أزوره ؟ انك لا تعرفنى . لأسيرن اليه على قدمى اذا اقتضى الأمر !

واستأجرنا « باندى » أى عربة هندية تجرها الثيران . لم تكن عربة فيكتوريا أو أى نوع من الحناطير . ولم تكن حتى عربة كارو . انما هى هيكل عربة خرج علينا من مقابر العربات يسعى . أنت تعرف ولا ريب عربات الدبش ذات العجلات الكبيرة ، تلك التى ينقضم وسطها فينقلب صندوقها الى الوراء بدبشة . انزع عنها صندوق الدبش فماذا يبقى ؟ تبقى « الباندى » الأنيقة التى ركبتها وصاحبى الهندى لنحج الى راميشفارام ، وقد تدلت سيقاننا بين

عجلتيها الكبيرتين . وسار السائق يحذب اليه حبالا ألجم بها ثوريه في خياشيمهما .

طريق الحج الأخير الى راميشفارام ، في تلك الأرض الفانية وسط الركام والمعابد المهجورة . بين أشجار « البنيان » والتمرهندى ونخيل « البالمير » ، وتحت أعين أصنام أقيمت على أبواب القرى للآلهة حتى تغدق على الأهلين خيراتها ، وللشياطين حتى تنعم عليهم بالبعد عنهم .

طريق الحج الى راميشفارام تحوطه المضايف أقامها الأغنياء اما لأنفسهم أو وقفا على فقراء الحجاج يأوون اليها هربا من القيظ الاستوائى ، وراحة من عناء السفر الكعابى ، وهو خير عندى من ركوب هذه « الباندى » وكأنى بها آلة من آلات التعذيب في القرون الوسطى ، تلك الآلات التى كانت تفصص عظام الأبرياء كما يفصص الثوم ، وتغمز جوانبهم كتغماز التين .

طريق الحج الأخير الى راميشفارام ، هذه معابد أعاد الصالحون بناءها . أو أصلحها من قضوا حياتهم يبتزون أموال المساكين فاستعاضوا عن اصلاح انفسهم باصلاح المعابد المهجورة .

وى ! هذه بعض قبور أولياء المسلمين . جرداء قرعاء مسلوخ عوارضها ، كأنها في هذه الأرض الهندوسية مخلوقات يتيمة منسية ، تائهة حائرة .

وى ! وهذه صلبان خشبية برصاء كتعاء . مقبرة مسيحية ترمق المقابر الاسلامية بعيون جافة غائرة . وكأنها تقول لها ، أى حظ عاثر رمى بك في أرض لا تعرف الرحمة » .

كلا ! ها هو ذا روح القديس « فرانسوا كزافييه » يرعى حملانه الأحياء والأموات . فهذه كنيسته تلمع جدة وبياضا ، أقامها له

أحفاد اتباعه . وهذا هو أسقفها الفرنسى يتقبلنا ببشاشة فى ناحتها المتربة . ويقدم لنا « باندى » ملاكى نشد اليها ثورينا بدل الهيكل الخشبى الذى حملنا اليه .

قلت فى مكان آخر « كل شيء نسبى » ، حقا ! فهذه « الباندى » الملاكى بدت لنا فى تلك الظهيرة المحرقة كأنها احدث موديلات الپاكار والرولزرويس، بينما هى لاتتعدى نوعا من التختروان مقوس السقف المصنوع من الحصير . ويدخل المرء اليها فيجد جزءا من قاعها هابطا كأنه حوض ماء فارغ فيجلس على حافته ويدلى رجليه فى تجويفه . وقد يمكنه ان يطل أو لا يطل من كوة اقل انفراجا من كوات عربات السجن . ويقينى أن عربة السجن خير من هذه الباندى الملاكى التى تفضل بها علينا أسقف كنيسة « فرانسوا اكزافييه » .

وبينما نودع القس الطيب الكريم ونتلقى بركته ، وقد ملت أربت على كلب له وسط كلاب سائمة لاهثة غائرة العيون ، دست دون عمد على طرف واحد منها ، فاستدار وعضنى فى ساقى عضة قطعت الجوارب وجرحتنى جرحا طفيفا .

واخذنى السامرى الى صومعته ليعالج جرحى ، وقد خشيت أن يكون العلاج فى هذه البلاد الروحانية عن طريق التعاويذ والتمائم . ولكن منظر زجاجة اليود ومسحوق البوريك أدخل على نفسى بعض الطمأنينة المؤقتة . فاذا كان الكلب مكلوبا يا ابتاه ؟

ــ لا تخف يا بنى ، انى أعرف اغلب هذه الكلاب السائمة ، فلا تخش مرض الكلب . انما يغلب على لعابها أن يكون متسمما نتيجة ما تلغ فيه من عفونة .

ــ شكرا يا أبت ، ورجائى اذا ظهرت على غريمى اعراض الكلب أن ترسل لى تلغرافا الخ .

طريق الحج الأخير الى راميشفارام ! ولم أر بعد شيئا من كوة التختروان الفخم الذى أكمل على بقية ضلوعى وسلسلتى الفقرية، حتى نزلنا بباب المعبد الكبير ، نحن حجاج راميشفارام .

ومع أن صاحبى الهندى قال لى عقب عضة الكلب « يقينى أن اله راميشفارام لا يريد أن يراك ، فقد استطعت أن أدور فى عرصات معبده ، واذرع ليواناته ومعابره وممراته . واكتشف تمثال « الوفاء الزوجى » واشترى آنية نحاسية استعملها الآن طقطوقة سجائر ، وآنية أخرى أضع فيها الوردة التى تعطر جو الحجرة حولى .

وخرجت من معبد راميشفارام وقد قلدنى أحد كهنته عقدا من أزهار الياسمين ، هو التحية التقليدية التى يقدمها الهندى لأقربائه ومعارفه .

ويحك يابن بطوطة

ويحك يا ابن بطوطة ، أفسدت علينا نساء « ذيبة المهل » فما كفاك أن تتزوج منهن باليمين وبالشمال . بل عز عليك أن يمشين فى الطرقات عاريات أعالى الجسد الأسمر المشرب بحمرة ، بارزات النهود ، مستديرات الأكتاف ، مبسوطات الصدر والظهر . فرحت تأمرهن بالتستر والحجاب .

« ونساؤها لا يغطين رؤوسهن ، ولا سلطانتهم تغطى رأسها . ويمشطن شعورهن ويجمعنها الى جهة واحدة . ولا يلبس أكثرهن الا فوطة واحدة تسترها من السرة الى أسفل ، وسائر أجسادهن مكشوفة . وكذلك يمشين فى الأسواق وغيرها . ولقد جهدت لما وليت القضاء بها أن أقطع تلك العادة ، وآمرهن باللباس ، فلم أستطع ذلك . فكنت لا تدخل الى منهن امرأة فى خصومة الا مستترة الجسد . وما عدا ذلك لم تكن لى عليهن قدرة » .

ومع هذا تعترف أيها القاضى الفاضل بأنه كان لك « جوار كسوتهن لباس أهل دهل يغطى رؤوسهن ، فعابهن ذلك أكثر مما زانهن اذ لم يتعودنه » .

وتمضى فى المتمدح بصفاتهن : « ولم أر فى الدنيا أحسن معاشرة منهن » . ثم « فقال لى الوزير سرا .... فهل لك أن تتزوج بربيبة السلطان ؟ فقلت نعم . فاستدعى القاضى والشهود ، ووقعت الشهادة ، ودفع الوزير الصداق . ورفعت الى بعد أيام فكانت من خيار النساء . وبلغ من حسن معاشرتها أنها كانت اذا تزوجت عليها تطيبنى وتبخر أثوابى وهى ضاحكة لا يظهر عليها تغير » .

ومع ذلك تصر على أن يغطين النصف الأعلى من أجسادهن . كأن الجمال الذى تمتدحه وتتمتع به يمنة ويسرة يجب أن يختبىء عن أعين الناس . فلتستأثر بنسائك وحدهن . مالك وغيرهن ؟ وأى عيب فى الكاعب أن تبدو محاسنها ؟ انما العيب أن تظهر القباحة فتقذى بها العين ، وتعافها النفس .

ليتك عرفت طرفا من أخبار يونان القديمة أيها القاضى العالم ، وكيف مجدوا وخلدوا الجسد العارى . اذن لأخذت عن أهلها الأمجاد ــ كما أخذنا ــ عبادة الجمال فى أحسن صور الجسم البشرى وأبدع أوضاعه . ولأيقنت ــ كما أيقنا ــ انهم اذا كانوا أورثوا العالم المتمدن تلك الروائع الفنية الخالدة ، فلأن عيونهم تفتحت على أجسام كاملة التناسب ، ولعلمت أيها الشيخ أن أعمدة « البارتنون » وفرونتوناته خرجت من رأس « مينرفا » بقدر ما خرجت من سيقان « فينوس » الملساء ، ووقفة « أبوللون » يرمى بالقوس أو يداعب القيثار .

ان الله جميل يحب الجمال يا مولانا القاضى . وقد دخلت جزائر « ذيبة المهل » فوجد سكانها أهل صلاح وديانة وايمان صحيح ونية صادقة . أكلهم حلال ودعاؤهم مجاب . واذا رأى الانسان أحدهم قال لله ربى ومحمد نبى » . مسلمون ومسلمات حسن اسلامهم قبل أن تنزل بهم ، ولم تك نساؤهم تسعين عاريات لرذيلة . فلماذا

تشعرهن بالسوأة ، وتلبسهن ذنوبا لم يدركن من أمرها شيئا قبل قدومك ؟

ألم ترعو حين « أمرت مرة بقطع يد سارق بتلك الجزر فغشى على جماعة منهم كانوا بالمجلس » ؟

ثم ألم تر كيف حاولت أن تستبد برأيك فى النساء فلم تستطع لأنك كما تقول « لم يكن لك عليهن قدرة » ؟

ومع ذلك تعود مرارا وتكرارا الى التمدح بجمالهن وحسن معاشرتهن وتصر على انك « جهدت أن تكسو النساء فلم تقدر على ذلك » .

خذلتك نســـــاء « ذيبة المهل » يابن بطوطة . وانى لأصفق لانتصارهن ، كما أصـــفق لانتصار غيرهن فى مشــــارق الأرض ومغاربها ، وفى كل العصور .

ثم كانت لك الغلبة فى النهاية ، ولكن بعد موتك . فلم تعش لتنعم وتفرح بانتصارك .

ولقـــد زرت الجزر بعـــدك بستمائة عام ، فوجدت النســـاء محجبات ، يتوارين خلف الأبواب اذا ما مر بها الغريب ، ويرمقنه بعيونهن الحوراء الحارة من فوق أسوار حدائقهن .

ويحك يا بن بطوطة ! أفسدت علينا نساء « ذيبة المهل » .

لمست أقدامى جزائر « المحلديب » كما تعرف الآن وأنا أتحرق شوقا لمشاهدة الجزر التى قال عنها رحالة طنجة الفذ « وهى احدى عجائب الدنيا » ، وأمنى النفس بلحظات هى ملك للفن الخالص حين أمتع سائر روحى برؤية الجمال الرائع والفادى فى غير احتشام زائف وخجل متصنع .

نزلت جماعتنا الى البر ترتاد جزيرة مالى (المهل) التى بدت لنا كالأحلام . ونحن نراها على امتداد البصر زمردة فى عقد الجزر المرجانية التى تحيط باللاجون . نور هادىء ، وسلام فردوسى ، فيه للنفس راحة بعد عناء ، واطمئنان بعد قلق . وسط ذلك البحر الداخلى المنبسط كصفحة من البلور المخضر فى زرقة ، ترتد عنه أمواج المحيط مزبدة متكسرة فوق أسنة الشعاب الغارقة . ميناء طبيعى وسط الأقيانوس ، تحيط به مجموعة جزر تتخللها فرجات خطيرة ، لا سبيل الى اجتيازها أو تتحطم السفن فيها تحطيما ، ما عدا المعبر الوحيد الذى لا يسلكه الا كل ملاح قدير . قال ابن بطوطة « وجزائر ذيبة المهل . وذيبة على لفظ مؤنث الذيب ، والمهل (بفتح الميم والهاء) ، نحو ألفى جزيرة . ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب الا منه . واذا وصل المركب الى احداها فلا بد له من دليل من أهلها يسير به الى سائر الجزائر . وهى من التقارب بحيث تظهر رؤوس النخل التى باحداها عند الخروج من الأخرى. فان أخطأت المركب سمتها لم يمكنه دخولها وحملته الريح الى المعبر أو سيلان » .

وقد نسرح فيها البصر ساعة الأصيل ، فلا تمل منظر الشمس تجمع نضارها من فوق رمال الشاطىء ، وعقيقها وزمردها من تيجان النارجيل ، كالحسناء « نوزيكا » تلم مطارفها وثيابها بعد غسلها على شواطىء « شيريا » تأهبا للرحيل .

نزلت جماعتنا الى البر ترتاد جزيرة «مالى » . وكان حادثا هاما قدومنا على تلك الجزر التى لا يرتادها السائحون ولا تدخلها بواخر الركاب . لذا سرنا يتبعنا جمع غفير من اهل الجزيرة . وفى اقل من نصف ساعة أتممنا دورتنا فى عاصمة جزائر المحلديب .

طرقات نظيفة ، هى مماشي بساتين أكثر منها شوارع . تحف بها س الجانبين أسوار المساكن صنعت من جذوع القصب وقش النارجيل . ترتفع من خلفها هامات شجرة الخبز وأشجار المنجة واللبان وجوز الهند ، ترسل اغصانها المورقة من ناحية لتلتقى بأغصان الناحية الأخرى ، حتى لنسير تحت سقوف وقباب من ذلك النبت الاستوائى المسرف فى كل شيء ، فى ارتفاعه ، وازدهاره، واشتباك فروعه ، وكثافة أوراقه ، وثقل عبيره .

وعدنا الى المرسى ، فاستأذنت أن أبقى ساعة أخرى فى تلك الجنة الأرضية ، أتملى من جمال غريب على كل حواسى ، لا اظن الحياة تهييء لى رؤياه أو مثيله مرة أخرى .

ضحك الكوماندر ف .. وقال : أهى الأشجار أو ما وراء الأسوار تنتزعك منا يا عم حسن ؟

وقال القومندان الاسكتلندى : أتحسبك عائدا الى السفينة قبل العشاء ؟

وقال رئيس البعثة الانجليزى : مطاردة الغوانى أيضا يا فوزى؟

وقال من لم ينس هوميروسه : حذار أن تأسرك « كاليپسو » فى كهوفها !

وقال زميلى المصرى : انت رامى جتتك ؟

ولم أجب ، بل قفلت راجعا الى الجزيرة يحدونى أمل خفى ، كانت ضحكات الصحاب فى القارب الذى حملهم الى السفينة تنذرنى بأنه أمل خائب .

فربما كانت الظلال البنفسجية ، وحفيف الأشجار المجهولة ، وصفحة سماء لازوردية يغشاها نقاب المساء الشفاف ، وعبير

الأزهار الغريبة ، هي التي أومأت الى أن أعود . ومن ذا الذي يحدوه المساء الساري في أعطاف الرياض فلا يجيب ؟

ولكن الصوت الذي أهاب بي لم يصدر عن جنة الشعاب المرجانية وحدها . وانما هو صوت داخلي يرن في أرجاء أرواحنا اذا اختلجت بنظرات العيون الحوراء ترنو من خلف الأبواب وفوق أسوار منازل « مالي » المليئة بالأسرار ، واهتزت بلمحة من شعور فاحمة تزينها عمامة صغيرة كالزهرة ترشقها الحسناء في فودها ، وانتفضت لوسوسة حلى تزين المعاصم السمراء والنحور النابضة الدافئة .

من يدري ؟ ربما دخل المساء منازل الحسان ففتح أبوابها وهتك أسرارها . آه من النفس الشاعرة لا تفتأ تهيم بالخيال ، وتؤمن بأن السراب ليس سرابا !

كانت المنازل مفتحة ، وقفت الحسان بأبوابها تحدجني بنظراتها من بعيد . ولكن الأبواب كانت تقفل كلما قربتني منها خطواتي ، فلا أرى غير طرف رداء موشي بدوائر من فضة ، أو ذؤابة شعر تزينه عمامة كالوردة القانية .

كيف تخفي مسيرك أيها المطارد الليلي ، ومدينة « مالي » من أقصاها الى أدناها عرفت بأنك تخلفت عن صحابك ، فهي تتربص لك ، وتعد عليك خطواتك ، من ذا الغريب الذي مكنته القريةالصغيرة من الغزل ، ومقامه فيها ليلة أو بعض ليلة . وقد جاء اليها من بلاد بعيدة ، غريب اللباس مجهول اللسان ؟

واخترقت المدينة حتى خرجتمن أسوارها الخلفية، فأشرفت على البحر الواسع المدى . ووقفت بعين ماء أعلل النفس أن توافيني اليها من وافت موسى من أهل مدين !

وفى عودتى صمد لى باب من الأبواب لم يقفل ، واذا به ...
طفلة فى حوالى العاشرة من العمر ، هى الوحيدة من أهل « مالى »
ذكرتنى بلباس نسائها أيام ابن بطوطة . مئزر يغطى أسفل جسدها
وعقد من القطع الفضية الصغيرة هو كل ما يغطى نصفها الأعلى اذ
ينحدر على كتفيها الدقيقتين من حول رقبتها حتى ينتهى بقطعة
فضية كبيرة تغطى سرتها الصغيرة وســـوارات من فضة تحيط
معاصمها الرقيقة .

وهكذا تلبس الطفلة لباس جداتها فى العصور الخوالى ، أيام
كانت المرأة فى « مالى » تنعم بطفولة الأمم ، وتمرح فى براءة الفطرة

الا ويحك يا بن بطوطة ! أفسدت علينا نساء ذيبة المهل .



- ترويض النفس
- ترقيات استثنائية
- حينما قمت خطيبا
- الشرق والغرب
- الوفاء الزوجي
- جوتا ماساكيا موني

ترويض النفس

نسمع كثيرا بأخبار البعثات البحرية ، وبعثات ارتياد القطبين ومجاهل القارات ، وتسلق جبال الهيمالايا . وكثير منا يميل الى الاعتقاد بأن البعثة هى مجرد مجموعة من رجال اخصائيين مجهزين بالآلات والعتاد اللازم ، تعدهم الحكومات والجمعيات العلمية والأغنياء النافعون بما يلزم من المال .

وقد يكون هذا صحيحا ـ ما خلا التجهيز بالآلات ـ فى بعثة تسافر لتمثيل هيئة رسمية لدى هيئة رسمية اخرى . ولكنه لا يحتوى الا جزءا من الحقيقة فى حالة بعثات الاستكشاف . فالمال أساسى فيها ولا شك . ولكنه بدون الرأس الذى يدبر تجهيز البعثة واعدادها لا قيمة له . ولكنه بدون شخصيات اعضاء البعثة ضائع لا محالة .

فالعنصر الانسانى هو كل شىء فى نجاح البعثات ، حتى بعثات التمثيل فى الاحتفالات الرسمية نختار لها رجالا لبقين حذقوا فن الحديث واللبس والأكل والشرب والرقص .

ولست مغاليا اذا قلت بان بعثات الاستكشاف قد تتطلب صلابة نفسية ، وقوة احتمال ، وشجاعة واقداما ، أكثر من الجيوش

الذاتية الى ميدان القتال . فهذه الجيوش تخرج الى الحرب وقد راضت نفوس رجالها فى السلم كل الرياضة ، وأعدتهم لكل ضروب الاحتمال والمقاومة . ثم أن روح الجماعة تتضاعف قوتها بزيادة عدد افرادها .

اما فى البعثات العلمية فليس من السهل أن تجد رجالا مدربين على الجهد المطلوب ، وفى غالبها يكون رئيس البعثة وحده هو القاسم المشترك بينها وبين بعثات سابقة .

هذا الى ان أكثر رجال البعثات مرانا هم أكبرهم سنا . والسن عائق شديد دون القيام بأعمال تنوء بوقرها أعظم قوى الشباب احتمالا .

والبعثة فئة محدودة العدد . غير مجهزة كالجيوش بفرق خاصة لمهمات البناء والهدم ، واعدادات الاقامة والرحيل . يعيش افرادها معا طول الوقت ، أو قد ينقسمون الى جماعات أو أفراد ، يتابع كل منهم مهمة مخصوصة فى عزلة عن العالم قد تكون تامة ولمدة طويلة .

والبعثة لا تقف أمام عدو انسانى معروف الطباع ، تستثير فيها حركاته كثيرا من الحماس وغير قليل من الروح الرياضية . بل هى مجموعة بشرية أمام قوى الطبيعة . والطبيعة عدو مخيف، ذات مزاج قلب ، تهدم اليوم ما بنته بالأمس ، وتدك فى لحظة ما اقامته يد الانسان فى شهور أو سنين .

اثناء زيارتى لبلاد النرويج ذهبت فى « برجن » أزور مكتشفا كسب شهرة عالمية فى ارتياد القطب الشمالى . وعند اقبالى عليه اتجهت بكلياتى الى النفوس فى تقاطيع وجهه . فلما مد يده للسلام على ، مددت يدى دون انتباه . وما ان أحسست بيده حتى عرتنى

دهشة اعتقد انى نجحت فى كتمان أمرها ، ذلك انه لم يبق للرجل من أصابعها غير واحدة أو اثنتين .

وسألت فيما بعد صاحبى الذى قدمنى الى الرحالة العظيم ، فقال لى : فى احدى رحلاته ، وأثناء عاصفة ثلجية هائلة قام ليلا يوثق من رباط خيمته . وفى تلك اللحظة فقد قفاز يده اليمنى . وانقضت لحظات جعل يبحث فيها عن القفاز ، وهى لحظات معدودة ولكنها كانت كافية لتجمد أغلب أصابعه .

والبعثة تتابع غرضا علميا خاصا قد لا يثير فى الجماهير أكثر من اهتمام عرضى . بينما الجيوش تعمل ومن ورائهـا حكومة وصحافة ورأى عام وأمة تضطرم بنار الوطنية نساء ورجالا واطفالا .

لذا تتطلب بعثات الاستكشاف من رجالها صفات ليس من السهل أن تجتمع لرجل : حماس بالغ لأغراض البعثة العلميــة ، وايمان بأقدارها ، وهمة عالية ، ونفس نبيلة ، وطبع دمث ، الى ما هنالك من الصفات التى يكون بها الفرد قادرا على التفانى فى خدمة المجموع ، مستعدا لكل أنواع التضحية . يضاف الى كل هذا ثلاث صفات اساسية : الطاعة فى الظاهر والباطن اى الطاعة المخلصة للرئيس ، والتمكن من مادة العلم المكلف ببحثها ، والتكوين الحديدى للأعصاب والجسمان . نفس وجسم وعقل من حديد ، هـذا ما تتطلبه ابعثة من رجالها .

ثم التجانس بين أفراد البعثة ، وهو شرط هام من شروط نجاحها .

وقد ضمت البعثة الأجنبية التى كان لى شرف الاشتراك فيها نائبا عن بلادى ، كثيرا من العناصر الصالحة نفسا وعقـلا وجسمانا للمهمة الشاقة التى أدتها . ونجاحها كان يمكن أن يعد نتيجة طبيعية لصفات رجالها الممتازة . ولكنى مع ذلك اميل الى اعتبار نجاحها

شيئا اقرب الى المعجزة . ذلك لانهـا كانت فاقـدة كل اثر من التجانس !

تصور تلك المجموعة الآدمية ألقتها المقادير فى بوتقة واحـدة لتؤدى اشق المهام فى اسوأ الأجواء . اربعون نفسا على سفينة طولها اربعون مترا وحمولتها ثلاثمائة طن ضيوف سجن عائم ينظرون الى الخلاص من رفقائهم قبل الخلاص من سجنهم .

جاءوا من الشمال وجاءوا من الجنوب ، جاءوا من الشرق والغرب ، جاءوا من جونات اسكتلندا وهدارات نيوزيلندا ، نزحوا من استراليا ومن جنوب انجلترا ، غادروا الصعيد والوجه البحرى ، عبروا الينا من جزيرة مالطة ومن بلاد النوبة ، جاءوا من السواحل ومن البلاد الداخلية ، انتدبوا من الأسطول البريطانى العظيم ومن مجموعة البحرية المصرية التى جارت عليها العوادى منذ « ناقارين » حتى عادت سفينة تعرج ، وسفينة تسعل ، وسفينة تمشى بانحراف كالسرطان . جاءوا سفرجية وبحرية وضباطا ومهندسين ، كما جاءوا أطباء وعلماء وخريجين حديثى العهد بالجامعات . أجناس ونشآت وطباع تعد بعددهم . أربعون نفسا كانوا على ظهر السفينة الصغيرة أسوأ هنداما من منصر « على بابا » . وأبدع نظاما من حرس « هوايتهول » . خمسهم لغته الانجليزية ولا يعرف كلمة عربية . والأربعة أخماس لغته مصرية لا يعرف أغلبهم غيرها .

رفعوا رؤوسهم ذات مساء من سبتمبر فوجـدوا أنفسهم فى عرض البحر ينظرون الى بعضهم بعضا ويقول كل فريق فى نفسه : فى أى بلية أوقعتنا المقادير ، وبأى رزيئة نكبنا ، وكيف نعيش سويا على ظهر العباب تسعة أشهر !

ولم يدعهم للتفكير ببليتهم طويلا جو البحر الأحمر ، أشد أجواء الكرة الأرضية رطوبة وحرارة . وهو أسوأ ما يكون مناخا فى شهر

سبتمبر ، الشهر الذى اختارته البعثة لاجتياز البحر الأحمر من الشمال الى الجنوب ، حينما تكون الرياح شـــمالية ، أى حينما لا يمكن للسفينة أن تتلقى نسمة واحدة تخفف عن ركابها أثر الحر القاسى والرطوبة القتالة !

لم ترزأ فئة بفئة ، بل تولى البحر الأحمر عنهما مهمة البلايا وانهاك الأعصاب وعكننة المزاج وجـر الشكل عشرة أيام بلياليها ، سلمهما بعدها لخليج عدن عشرة أيام أخرى بلياليها .

وتجهمت شواطىءمصر العليا والحجاز واليمن والسودان والارتريا والصومال ، فكانت ترسل عليهم لوافح سمومها ، وتطاردهم فيما بينها كأنهم فئة منبوذة ملعونة ، غضبت عليها شعوبها فأرسلتها على سفينة الملعونين الضالين .

كان من المستحيل أن يكون تجانس على ظهر السفينة . وكان هذا مصدر ضعف كبير فى تكوين البعثة ، ومصدر متاعب كثيرة .

ومع هذا نجحت، واعتقد أن نجاحها كان نتيجة لرياضة نفس أعضائها فى رحلاتها الأولى ، وخصوصا فى رحلتيها عبر البحرالأحمر وخليج عدن .

ولم يكن للنفوس ذاتها فضل البدء بهذه الرياضة . بل كان ذلك عائدا بالأولى الى قسوة التماس الأول بين كل فرد من أفراد البعثة وزميله ، وبين أعضاء البعثة والسفينة وأجهزتها وبين جميع هؤلاء وجوالبحر الأحمر المهلك المشقى .

ويظل للنفوس بعد هذا فضل استطاعتها أن تنهض لهذه الرياضة، وللرجال الفضل فى تملك قيادة النفوس وسياستها .

فحينما استقرت الأمراض بين رجال السفينة فى الثلث الأخير من رحلاتها الطويلة ، حينما استولى الضعف على أجهزتهم الانسانية ونال من السفينة وآلاتها ، كما نالت الحـــوادث من أجهزتها ،

صمدت النفوس لكل شيء ، واستعدت لكل طارىء ، واحتملت كل ضعف آلى أو جسماني .

وان تردد الآن على لساني قول الشاعر « واذا كانت النفوس كبارا الخ » فليس ذلك فى عرض الفخر ، ولم تكن نفوسنا كبارا الى الحد الذى تطلبته مهمتنا ، انما نحن والحوادث رضناها على أن تبلغ ما بلغته من الكبر .

وبودى لو اننا فى حالتنا الراهنة نفكر مليا بماأقول . فليست الجيوش مجرد اعدادات ميكانيكية . بل هى قبل كل شيء ترويض النفس على احتمال الأهوال ، واعداد نفوس الملايين من الناس عن طريق التعليم والتربية والتدريب والصحافة والمنابر العامة والأمثولات الحية ــ لتهب فى أى لحظة لما يسمونه « الدفاع عن الحمى » و « الذود عن حياض الوطن » . وهذه ليست مجرد ألفاظ جوفاء ، ونعرة وصياح . بل هى حقيقة رهيبة تقتضى من روح التضحية وقوة الاحتمال ، ومن الدربة والاستعداد والمال ... وأكثر من كل هذا ... تقتضى من البشرية أرفع وانبل وأفضل واقوى ما فيها ، وهذه الصفات لا تصل اليها طبائع الناس ما بين ضحية وعشاها ، وانما تتطلب تكاتف كل جهود أبناء الوطن الواحد، نحو الغاية الواحدة ، بارادة واحدة .

ترقيات استثنائية

تختلف سبل قيادة الرجال باختلاف طبائع القواد ، فليس من السهل وضع صورة نموذجية لما يجب أن يكون عليه قائد الرجال . وانماتدرس القيادة وتحلل فى أشخاص نوابغها وقد يمكن الوصول بعد ذلك الى شبه قواعد عامة للقيادة تلقنها الشبيبة ، ولكن هذه القواعد لا تستطيع أن تخلق من التابع متبوعا . فقائد الرجال يولد كذلك . وهو فى الشعوب الفطرية يأخذ مكانه من القيادة بحكم صفاته الطبيعية . أما فى مجتمعاتنا المنظمة فكثيرا ما يعطى الحلق للى بلا ودان بحكم الوسط الذى نشأ فيه هذا الأزعر ، وتبعا لوريقات مدموغة تعززها وساطة عائلية أو ما اليها تصل به الى مركز القيادة . حتى ليجد فيها من يتملقه ويشهد له بالقيادة لم تك الا له ولم يك الا لها .

ويلوح لى أن أول ظاهرة تبدو على من ينال مركز قيادة لم يخلق له هى التكشير والشخط والنطر ، وقرع الموائد بقبضة اليد ، الى ما هنالك من مظاهر الأمر والنهى الفارغة التى لا تصدرعن تفكير خاص واتجاه معين ، وانما هى أشبه بجعيرممثل التراجيدها الخائب كل مايعرفه من التمثيل هو الزعيق منأم يافوخه ، والتلويح بالأكف والمرفقين .

واخال القيـادة مرتكزة على صفتين أساسيتين : الشخصية أولا ، وفهم الرجال ثانيا .

أما الشخصية فقائمة بذاتها sui generis لا يتفرع عنها أمر آخر . أما فهم الرجال فتتفرع عنه صفتان من أهم صـفات القيادة : معرفة القائد تمام المعرفة كيف تنفذ أوامره ، ومعرفته بدقة متى وكيف يكافىء المحسن .

ولم أقل كيف يعاقب المسىء . فالعقاب هو والجمير والشخط عندى سواء بسواء . ليس أسهل على القـائد أو الرئيس من أن يعاقب او أن يشخط . ولكن الصعوبة فى متى وكيف يبتسم ويتبسط ومتى وكيف يثيب .

ولست الآن فى عرض الحكم على ملكة القيادة عند قومنـدان سفينتنا الاسكتلندى فليس هذا شأنى . ولكنى أود أن اشـهد له باحدى صفاتها الهامة : انه عرف كيف يكافىء رجاله ، وتخير اللحظة المناسبة لمكافاتهم .

ولم يكن الأمر سهلا . فانه وان تفاوت بحارة السفينة فى ملكاتهم ، فقد أدوا واجبهم بكل ما أوتوا من قوة واخلاص وكفاءة . ثم انهم كانوا نخبة من البحرية المصرية ، وقع الاختيار عليهم للقيام بمهمة أدرك ولاة الأمور دقتها وصعوبتها ومشاقها . وقد امتدت مهمتهم الى تسعة اشهر دون هوادة ، لا يعرفون فيها جمعة ولا أحـدا ولا عيدا . ومهمة هذا شأنها لم تك تسمح لغير الصالح بالبقاء . وقد صلحوا كلهم الا اثنان لم تطاوعهما حالتهما الصحية فأعيدوا فورا . كيف اذن يكافأ هؤلاء الناس وهم أفراس رهان ؟

كوفىء واحد منهم حوالى الثلث الأخير من الرحلة . وهو رجل أوتى من النباهـة الفطرية والشخصية والكفاءة فى أعمال البحـر

وأعمال الصيد ما لم يترك مجالا لتذمر اخوانه وهم أدرى الناس بتفوق زميلهم .

وسافرت السفينة فى رحلتها الأخيرة متجهة شمالا بغرب شطر السويس . وقد أيقن باقى الرجال أن ترقياتهم رهن بالرئاسة العليا فى القطر المصرى . وأنها سوف تقرر أياما وشهورا عقب عودتهم الى الاسكندرية . وربما نسى ولاة الأمور شأنهم بمضى المدة فتغاضوا نهائيا عن مكافأتهم .

بهذا لم يفكر القومندان الاسكتلندى لحظة واحدة . فعندما اقتربت السفينة من السويس اجتمع بى واخبرنى بأنه يود ان يعلن الترقيات فى الاسماعيلية . واتفق معى على الأسماء وعلى كتمان خبرها . ورجانى أن أتصل بالرئاسة العليا تليفونيا من السويس لأحصل على الاذن باجرائها قبل عودة السفينة الى الاسكندرية . وقد تمت موافقة الرئاسة العليا صباح وصولنا الى السويس ، وبقى الخبر مكتوما .

رست السفينة فى بحيرة التمساح أمام مدينة الاسماعيلية . وأمر القومندان ضابطه الأول أن يجمع الرجال بهيئة طابور استعراضى . ثم أفضى الى رئيس البعثة بالغرض من الطابور وهو اعلان « الترقيات » ، وبان اللحظة جاءت ليعلن رئيس البعثة ما قررته رئاستها العليا فى انجلترا بشأن البحارة .

ووقف بين صفين من البحارة والبحارة الوقادين ، ووقف الى جانبه رئيس البعثة وأعضاؤها . وطلب من ضابطه الأول أن يترجم خطابه جملة جملة . وأذكر منه بعض فقرات :

ــ أريد وأنا أعلن الترقيات التى وافقت عليها الرئاسة العليا صباح اليوم أن أعبر لكم عن اعجابى بكم ، وثنائى على المجهود الرائع الذى استطعتم به أن تقدموا أعظم خدمة لبعثة علمية كبرى . وأنتم من وراء ذلك قد اديتم واجبكم نحو بلادكم اذ رفعتم من شأن البحرية المصرية ، ودافعتم عن شرف الراية المصرية . واظهرتم العالم الذى

كان يتتبع أخبار البعثة على أن فى مصر رجالا قادرين على ارتيـاد البحار ، لا فى حماية السفن الكبيرة ، بل على ظهر باخرة صغيرة كانت محل اعجاب رجال الملاحة فى كل مكان . فأنا أهنئكم وأهنىء مصر بأمثالكم واخيرا أرجو أن يدرك كل من يسمع اسمه منكم عند تلاوة قائمة الترقيات أنه استحق الترقية كل الاستحقاق ، ونالها عن جدارة .

ثم بدأ فى تلاوة القائمة حتى جاء على آخرها ..

واذا بها تضم أسماء جميع البحارة ، والوقادين ، والسفرجية!

كان « اخراج » هذا المنظر ــ على حد القول السائر ــ بديعا . ولعلنى أكثر من شاهدوه تقديرا له وتمتعا به . فلم يكن يعرف بسر الترقية الاجماعية الا القومندان وأنا ، والقومندان كان الى حد ما « بروتاجونست » فى المنظر ، فهو مشغول بتمثيل دوره الهام . أما أنا فكنت أطالع على وجوه الرجال أثر خطبته التى كانت تبدو لهم جوفاء . اذ أن كلا منهم كان يتحرق على معرفة النتيجة ، وعما اذا كان ممن وقع اختيار القومندان عليهم للترقية الى رتبة أعلى . لذا كانت سيماء القلق تتزايد على وجوههم كلما واصل القومندان خطابه

ورب قائل : منظر نعرفه . فهذه نتائج الامتحانات فى آخر كل عام دراسى تقدم لنا نماذج من هذا القلق المساور . هذا صحيح ولكن ...

ولكنك فى حالتنا أمام رجال بسطاء تغربوا عن ديارهم تسعة اشهر لاقوا فيها المرائر ما بين مشقات وأمراض ، بله تعريض حياتهم لأخطار البحار وأخطار الكشف العلمى فى البحار .

لكنك لم تعاشرهم تسعة اشهر ،ولم تك طبيبهم ، ولم تعرف سرهم وعلنهم ، ولم تتابع هـوايتك الكبرى وهى دراسة الرجال تمارسـها فيهم .

ولم تكن تعزفهم كماعرفتهم واحدا واحـدا ، ولم يك حدبك عليهم مثـل حدبى ، وخوفك من فشلهم مثل خوفى ، واهتمامك بنجاحهم مثل اهتمامى .

تصور هذا الموقف الشاذ : بعثة بحـرية تخرج من بريطانيا ـ رأس الامبراطـورية التى قامت على أكتاف ملاحيها وقـوادها البحريين فرنسيس دريك ، كوك ، نلسن ـ وتهبط أرض مصر ، تستعيرها سفينتها العلمية الصغيرة بضباطها ومهندسيها وبحارتها ووقاديها . وتسافر بها وبهم الى المحيط الهندى تذرعه طولا وعرضا مدى تسعة أشهر .

بريطانيون يسافرون على احدى سفن البحرية المصرية التى لا تعرف بعد ان كانت ناشئة ، أو هى من بواقى مجد دارس . فما ان تسير بهم السفينة بضعة أميال فى البحر الأحمر حتى يجهروا بقلقهم ، ويعلنوا ندمهم على أن لم يستعيروا سفينة بريطانية !

بعثة بحـرية تسافر يساورها الشك فى أقدارها سلمتها الى رجال من بلاد غير بحرية .

بريطانيون يتفكهون علنا فى أول عهد الرحالة بحكاية « مالطة يوق » تكفل بقصها عليهم بعض ضيوف مصر ، ممن يرغدون بعيشها بقدر ما يعيشون على النيل من سمعتها ، وجر اسمها فى التراب ، وتحقير رجالها . وقد راحوا يجعلون منها حكاية مصرية ، وهى فى الأصـل نكتة تركية :

أرسل السلطان أسطوله لزيارة مالطة . فخرج الأميرال وأخطأ فى حساباته الملاحية حتى تاه فى البحر الأبيض . ثم عاد الى سيده سلطان تركيا يقول « مالطة يوق ! »

فكان رجال البعثة يقصونها علينا كما سمعوها فى الاسكندرية من ضيوفنا الأجانب ، منسوبة الى البحرية المصرية فى عهد أحد الخديوين : أرسل الخديو أسطوله الخ ... وعاد أمير البحر الى سيده يقول له « مالطة مفيش ! » وقـد حفظوا كلمة « مفيش » بنصها فهم ينطقون بالنكته هذا « مولتا موفيش » .

أقول انك اذا كنت عشت مثلى تلك الأيام السوداء فى أوائل عهد الرحلة ، ورأيت كيف يتطور رأى البريطانيين على السفينة شيئا فشيئا من السخرية الى القلق ، ومن القلق الى الاطمئنان ، ومن الاطمئنان الى الدهشة ، ومن الدهشة الى الاعجاب، برجال البحرية المصرية .

فانك حينئذ تدرك كيف تمتعت « باخـــراج » القومندان الاسكتلندى لمنظر الترقيات الاستثنائية على ظهر سفينتنا الراسية فى بحيرة التمساح .

هكذا أتصور شعور الوالدين بنجاح أولادهما ؛ وكان شعورى !

سوف يعود اذن هؤلاء الرجال بعد غد الى أهلهم فى الاسكندرية! يحمل كل منهم على ذراعه شريطا جديدا فوق ما كان يحمل . وسوف يعرف أهلهم أنهم لم يفارقوهم عبثا .

وسيطالعون زملاءهم بأمر ما كسبوا نتيجة احتمالهم ورجولتهم .

لى ولك أن نعود من أمثال هذه الرحلات محملين بالتجاريب ، مفعمين بالمعرفة . لى ولك أن نقنع بكثير من الخيالات التى قام عليها تعليمنا وتثقيفنا . ومع أن البحار البسيط قد كسب هو أيضا خبرة ومعرفة يختــال بهما على أقرانه الا أن أفقه الضيق ، وأفق أهله وعشيرته وأقرانه وأصحابه ، لايحتمل ولا يكشف عن فوائد لرحلة المحيط الهندى أكثر من الفائدة المادية الأدبية التى تتأتى من الترقية الى رتبة أعلى .

اما أن تشكو لى تلك السيدة التركية الجليلة من أقرباء أحدنا فتقول « ترقيــة كويس أفندم ، ماليش . لكن يا ابنى ضرورى الشان الولد واهد نيشان . ايفت أفندم ! نيشان اظيم أظيم كتير » فهذا من خصائص الطبقات المتعلمة .

ثم تقدم رئيس البعثة بين الصفوف وخطب ممتدحا البحرية المصرية بلا تحفظ . وأعلن أن رئاسة البعثة فى انجلترا قدرت مجهود الرجال أكبر تقدير ، وأنها قررت صرف مرتب شــهر اضافى لكل واحد منهم مكافأة له . كما قررت ضرب مدالية تذكارية من البرونز توزع عليهم ، ومن الفضة لتوزع على الضباط والعلماء .

وتقدمت أنا لأخاطبهم باللغة الوحيدة التى تصل الى قلوبهم ، اللغة العامية ، تلك اللغة المحرومة ، المنبوذة من الدوائر الرسمية لاالذنب الا لأنها لغتنا الحقــة ، لغتنا الصادقة . لازواق لها نخفى تحته عواطفنــا الكاذبة كما نملك أن نحيط فؤادنا الفارغ باطار من اللغة المنتفخة الأوداج . ونخفى فى قعقعــــة القافات وتعطيشات الجيم قلة ايماننا بما أدخل علينا من ضروب الحضــارة الغربيــة العليـــــا .

لا احسبنى فى خطبتى بالعاميــــة زدت عن العشرين كلمــة ، استطعت أن أضمنها كل ما فى نفسى من عواطف الشكر والثنــاء على الأبطال الحقيقيين لرحلة المحيط الهندى .

وهتف الرجال للبعثة ورئيسها وقبطانها ، كما هتفوا بحيــاة أسعد الناس بنجاحهم .

وليقل القوالون ما شاءوا فى الهتاف ، فانى لعليم منذ سمعت هذا الهتــاف الصـــادق أن ما يقال فى الحط من قدره وقدر من ينالونه عن جدارة ، ويطربون لنبراته ، وقد اثاره الحسد والحقد والضغينـــة .

وانني لفخور اذ أحس بأن خير ما عدت به من هذه الرحلة هو حب هؤلاء البسطاء الذى تجلى فى كل مناسـبة ، والذى أتيح له الظهور بشكل اجماعى فى هتافهم باسم طبيبهم وراعيهم .

ونادى الضباط الأول بالانصراف ، فتحولت الصفوف المنتظمة الى رجال يتعانقون ويهنىء بعضهم بعضا .

هكذا عرف القومنـــدان كيف يكافىء رجاله ، وتخير اللحظة المناسبة لمكافأتهم . وهذه احدى الصفات الهامة التى تقوم عليهـا قيادة الرجال .

حينما قمت خطيبا

ليتني اجد الوريقات التى خططت عليهـا عاجلا خطبتى قبل القائها مباشرة ، حتى لقد اضطررت أن انتحى مكانا خلف الستار فى قاعة الجمعية الملكية لاكمل كتابة الخطبة التى كان على ان القيها فى ذلك المكان عقب محاضرة رئيس البعثة . ولا زلت أذكر فترينه أفقية استندت اليها ووقفت أكمل خطبتى فوق زجاجها .

لان هذه الخطبـة كانت لغزا لم يتمكن من حله أصدقائى ويصعب أن يعترف النـاس بقصورهم عن الفهم ، وخصوصا فهم أصدقائهم حتى ولو فصلت بينهم تسعة اشهر من حيـاة مجهولة لهم ، على ظهر سفينة ضئيلة ذهبت تجوب البحار البعيدة .

فرحلتى قامت فى ذهن أصدقائى كنزهة بحرية جميـلة ، كما يركب الأغنياء يخوتهم الخاصة ليطوفوا حـول الأرض . لم يكن الأصدقاء يشكون لحظة بما تمثله هذه التسعة أشهر فى حياتى . وقد اعتـادوا منى كثرة التنقل ، فحسبوا ان سـفرى فى أرجاء المحيط الهندى حتى أبعد من خط عرض ١٠ جنوب خط الاستواء ، وحتى مدخل الخليج الفـارسى شـمالا ، هو وسفرى الى شمال اوروبا وشمال افريقيا وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط سواء

بسواء . وانه لكذلك لو لم تكن حياتى وتجاريبى على ظهر السفينة تسعة أشهر من أشد وأقسى ما لقيت فى حياة مليئة بالصعاب .

ففى خطبتى بالجمعية الملكية حاولت أن أنفذ مباشرة الى الصميم الانسانى تحت المظاهر الدنيوية التى تظهر بها البعثة الكبيرة .

قال صاحبى الكوماندر ف ... وهو يقدمنى الى احدى السيدات فى ميناء من موانى المحيط الهندى :

— هو فى الظاهر طبيبنا ، ولكنه فى الواقع فيلسوفنا .

والسيدة من هواة مطالعة الكف ومعانى الوجوه . فأجابت ف ... ، وكانت تتفرس منذ لحظة فى يدى وأنا ألوح بها فى الهواء ، كأن الكلمات قاصرة عن تأدية المعانى فأحاول أن اصور هذه بأصابعى فى الهواء :

— قد يكون صاحبك فيلسوفا ، ولكن اصابع يده تنفى كل صلة له بالفلسفة . انها أصابع رجل من أهل الفن .

قال ف ... :

— لعلى أسأت التعبير . ان أهم ما يعنى به الدكتور فوزى فى الحياة هو دراسة الانسانية . ونحن حوله على السفينة ... نماذج دراسية من الطبقة الأولى .

صدق الكوماندر الذى يتكلم عن خبرة ، ويصدر الحكم وفق ملاحظته الشخصية ، لا عن علوم قراءة الكف والپازرجة . فقد حققت بعض أمنيتى فى دراسة البشرية بحياتى الملاصقة لأربعين من مختلف الملل والنحل ، يعيشون مزدحمين فى الحيز الضيق الذى تمثله سفينة طولها أربعون مترا .

وحاولت أن الخص دراستى البشرية للجمهور الذى جاء الى دار الجمعية الملكية ينصت لكل شيء الا لمحاولة التغلغل فى الصميم الانسانى للبعثة .

ثم فى اى جو تكلمت ؟

هذا رئيسنا ليس يحيا الا بذكرى محطاته العلمية واكتشافاته البحرية . وهو يلقى على الأسماع طرفا من رحلتنا العظيمة فى صوت متزن هادىء ، ولهجة خطابية يلقنها الانجليزى أثناء الدراسة حتى يكون على استعداد دائما للخطابة فى نهاية حفلات العشاء . واذا كان رئيسنا اليوم متوعكا بعض الشيء ، فلم تختف فى غنته الأنفية نبرة الفخار بالبعثة التى أتقن تجهيزها ثم قادها الى ختامها بنجاح باهر .

وهذا زميل لى يقول بالعربية ما قاله رئيسنا بالأنجليزية . معاذ الله أن يكون مترجما لكلمات الرئيس . انما هو فى كلياته وجزئياته كما هو فى خطابته نسخة مصرية صادقة لرئيسنا الانجليزى . فليس من عجب أن يشاركه فى التغنى بالمحطات العلمية والاكتشافات البحرية . وقد كان عند حسن ظن الجمهور به اذ صور مجهود البعثة العلمى أحسن تصوير ، ولقى خطابه النجاح الذى يستحق .

ثم خرج علينا ثقيل لا اعرف من أين أتى ، وألقى خطابا لم افهم فى أول الأمر القصد منه ، وقد ضمنه كثيرا من الآيات القرآنية والأشعار ، وكانت لهجته فقهانية واضحة .

وانكشف الأمر حين انتهى هذا الدخيل فى خطبته الى الاشادة بذكرى منصب خطير كان هو الداعى بالذات الى هذا الحفل لتكريم البعثة . وراح الخطيب المجهول يكيل القافات المقلقلة والثاءات

المفأفأة مدحا وتكريما للذى المنصب الخطير . ثم ثنى بوكيله ، وثلث برئاسة عليا يغلب على الظن أن أمرها يهمه بنوع خاص .

وهكذا انتهت خطابة هذا المخلوق العجيب بأمثال « شوبش » لشخصيات لابد وأن تكون لمناصبها أهميــة واضحة فى مستقبله ، وكانت جالســة بالذات فى الصف الأول من الحفل الكريم . ودعا ولج فى الدعاء ، حتى رجوت أن يكون له منهم بعـــد هذا جزيل العطـاء !

فى هــذا الجو وقفت أخطب ، وحاولت فى خطبتى أن أنفـــذ مباشرة الى الصميم الانسانى تحت المظاهر الخلابة للبعثة . حاولت أن أكشف الغطاء قليلا عما تكلفته هذه المظاهر من جهاد نفسى أشد روعا من كل جهاد عقلى أو جسمانى .

لذا بدوت لغزا لأصــــدقائى حينما لم أطرق الموضوع لا من ناحيته العلمية ولا حتى من ناحيتـــه التصويرية . وقد أبى عطفهم على أن يحكموا على موقفى بما هو جدير به .

لقد كان نشازا مزعجا حين جئت أمام الناس أكشف الستار عما وراء الكواليس . وأظهرهم على تلك المشتبكات المخيفـــة من اللوالب والعجلات والتروس النفسية ، استطاعت أن تدور بحكمة وأن تنتهى الى النتائج والمظاهر الخلابة التى تكلفوا مشقة الحضور هذا المســاء للاطلاع عليها . مع أن اختلاف معادنهـــا وصريرها وقوتها وسرعة دورانهـــا كانت تنذر لا بوقوفهـــا فحسب ، بل باشتباكها وتحطيمها .

وقد حقت على كلمة أســـتاذ فى علوم النفس ــ يا لســخرية القدر ! ــ حضر الحفلة بناء على الحاح صديق حسن الظن بى :

ــ خطبة صاحبك لا هى من الأدب ولا هى من العلم فى شىء . بصراحة كده لا هى فى العير ولا فى النفير .

ذلك كان حكم أســـتاذ علوم النفس على حينما قمت خطيبا اكشف عن الحالات النفسية لاربعين رجلا مختلفين جنسية وثقافة وتدريبا ولغة ودينا ، حشدوا على ظهر سفينة صغيرة تسعة أشهر متوالية ، قضوا أربعة اخماسها فى عرض البحر .

وللقدر معى سوابق من مثل هذه السخريات . فقد ألفت فى مستهل شبابى رواية شعرية . وفى الليلة الأولى لتمثيلها الغنائى قدمت لأمير من أمراء الشعراء . كان لى من العمر اذ ذاك أربعــة وعشرون عاما ، وهذا الشاعر فى أواخر العقد السادس . وكانت الرواية استهلالا لحياتى الأدبية ، بينما الشاعر فى ذروة مجــده الأدبى . الى القارىء كلمة أمير الشعراء المجيد لمؤلف يبتدىء حياته الأدبية برواية نظمها شعراء من أولها لآخرها :

ــ كويسه كويسه ، الموضوع جميل . لكن بالحق ما عملتهاش شعر ليه ؟ كان حقك عملتها شعر !

ربما كان هذا الرجل شاعرا كبيرا ، ولكن مما لا شك فيــه أن نفسه كانت أصغر من شعره .

الشــرق والغــرب

كان أول ما رأيت من الهنـد بحرا هادئا صافى الزرقة ، تلعب فيه الحيات البحرية . وهى حيات سـامة صفراء اللون ، تتنفس الهواء وتتوالد فوق اليابسة ، ولكنها اعتادت الحيـاة فى الماء ، وتطور تكوينها تبعا لهذه الحياة فتفرطح ذيلها الى ما يشبه زعنفة الذنب فى الأسماك . وكانت كثيرة حول سفينتنا قبيل دخولنا الى كراتشى . ما ان تشعر بقربنـا حتى تغوص فى الماء وهى تتلوى ، كأنها بريمات ذهبية تثقب صفحة من اللازورد . واسترعى بصرنا منظر الحدآت البحرية الضخمة يظهر منها على سطح الماء ما يشبه آذان فيلة غاطسة تهش بها عن اجسادها بعض الهوام .

ثم كانت كراتشى عاصمة السند . وكانت الهنـد فى بومباى ومدراس وما دورا وراميشفارام الخ . ولكن التماس الأول كان فى تلك المياه الزرقاء تموج بالحيات السامة والحدآت البحرية ، وكان فى الأبقار مسرحة فى شوارع المدينة الهادئة بعد التاسعة مسـاء . وكان فى دار للسينما تعرض شريطا هنديا حسبته احـد المنتحات المسلسلة للسينما الهندى ، ولكنى عرفت فيما بعد قيمة المصادفة السعيدة التى قادت قدمى لرؤية هذا الفيلم النـادر . فالسنما الهندى ـ كالسينما المصرى ـ هو الهنـد يراها أهلهـا من هوليوود لا بعيونهم . والجمهور هنـاك لا يقبل الا على النوع ذى

المناظر الفخمة المزيفة ، والوقائع التى يقهر فيها البطل أعداءه بتلك الفتوة الأمريكية قوامها شك المقالب على طريقة المصارعة الحرة ، وتسلق جدران قصور منيفـــة حيث اعتقل الأمير الأســـمر امراة شقراء ، تترقب والهة مقدم البطل الذى يجمع الى جراة آل كابونى طراوة رودلف وتخنث رامون . وقد يستعير الممثل الهنـــدى فوق وجهه الأســـمر تلك الشوارب العجيبة التى اعتـــاد وليام باول وأقرانه أن يقدموها لنا بالزوج والفرد كأنها بضاعة البائع المتجول. أذكر شريطا رأيته فى أوائل عهـــد السينما المصرى يكمن فيه وغد الفيلم ليبطش ببطله . ويمر به هذا الأخير فيشكه مقلبـــا وينطرح الاثنان أرضا يدوران حول بعضهما فى شجار ، ينهض اثناءه الواحد مرة فيشده الآخر من ساقه شدة يتقى أثرها بشقلبة بهلوانيـــة . واذا لم يكن لى مطعن على المقلب كفرجة شائقة فى ذاتهـــا ، فانى أعترض على أن يكون هـــذا البطل وذاك الوغد مصريين . وكثيرا ما شاهدنا مشاجرات المصريين فى الريف والحضر ، فعرفنا ضرب الروسية والمسك بالتلابيب ، وشك المقلب على الطريقة البلدية ، وضرب الشلاليت والبونيـــة والبصق فى الوجوه ، الى هنالك من ضروب الخناق المصرى . ولا أذكر انى حظيت برؤية عراك فى مصر كذلك الذى رأيت فى الفيـــلم المصرى . كما لم أســـمع بأمر المصرى يرمح بفرسه هاربا فاذا ما انطلق فى ظل حائط ، انقض عليه مصرى آخر من أعلى الحـــائط فامتطى الفرس وراءه وامسك بعنـــانه وبتلابيب الوغد الهارب .

شبيه بأمثال هذه الألاعيب الصبيانيـــة ما رأيت فى الفيـــلم الهندى الذى يقبل عليه الهنود فى دور السينما الكبيرة . أما الفيلم الذى كان من توفيقى أن اظفر برؤياه فى الليالى القليلة التى قضيتها بكراتشى ، فقد كان يعرض فى دار متواضعة ، وعلى بضع عشرات من الدهماء . وهو فيلم غنائى قليل لاشخاص بسيط الموضوع .

غلام من أصل ملكي يحميه الاله « شيفا » ، ويضطهده وأمه مغتصب لعرشه . يقطن الغلام وأمه كوخا وسط الأدغال ، ويظهر لنا « شيفا » بأذرعه العديدة يقود خطوات الغلام ويقوى من عزيمة أمه . ممثلة دور الأم مغنية تعبر عن آلامها بأغان هى أفضل ما سمعت من الموسيقى الهندية . وتصطحب الحوادث موسيقى الآلات تتبين الأذن من بينها نواح « الساورنچى » أو الكمنجة الهندية . وكان تمثيل الصبى وأمه طبيعيا . والقصة كلها تحركها روح استسلام وايمان وتجرد ، هى الروح الهندوسية العليا . وتنتهى الرواية بخروج الصبى وأمه عن العالم ، وانصرافهما الى عبادة الاله الحامى ، وقد انصرفا بايمانهما عن العرش المغتصب ، وكل رواء هذه الدنيا الشريرة .

كان هذا الفيلم اذن خلاصة الروح الدينية التى نسمع بها عن الهند ، هند « اليوجى » و « السنيازى » ، هند المهاتما غاندى . وقد أشرفت على ناحية من نواحى العصيان المدنى ، وفهمت المغزى الروحى للمغازل المنزلية اذ رأيت هذا الفيلم المتواضع فى قاعة متواضعة . ولكنى فى نفس الوقت أدركت ناحية من نواحى الضعف فى بعض الحركات الروحية حين تدخل ميدان السياسة العملية . فهذا الغلام الذى صان نفسه وصانته أمه عن شرور الحياه (أو « كارما » فى الفلسفة الهندية) قد بلغ ذروة التلاشى النهائى (« البراهمان » أو « النيرڤانا ») ولكنه لم يغل بعمله هذا يد الراچا الذى اغتصب عرشه وعاث فى الأرض فسادا .

آمنت أن الصبى ضرب للبشرية جمعاء مثلا عاليا فى التجرد والتقوى . وأومن أن الروحانيات تضىء للانسانية طريقها نحو السمو الروحى . ولكن قوة هذه الروحانيات تضعف اذا اكتفى بها سلاحا . فهى سلاح من نور يضىء فى الظلام فحسب . بينما الظلام تكتنفه أسلحة مادية ربما لم تكن كلها شرا . فهذا غاندى يسمو

بروحه ، ويهرول بقبضة الملح الرمزية يتبعه العصاة متجردين . سلاحهم ضد بريطانيا مغزل بيتى ، بينما تعمل الأنوال البخارية فى بومباى حتى لتزاحم لا تكشير ، ويقوم المهندس البريطانى بحجز المياه فى خزانات سكلوبيه تحيى موات العدد العديد من الأفدنة ، والطبيب البريطانى بتحضير اللقاح والمصل لانقاذ حياة الملايين من الناس ، وينظم السياسى أداة الحكم فى نيودلهى وكلكوتا ومدراس وبومباى لخير الامبراطورية العظمى وخير الموظفين البريطانيين ، ويقيل المصلح الاجتماعى من عثار الأرامل الهنديات ، وينقذ الصبيات دون العاشرة من زواج الكهول . فاذا كانت خطط غاندى الروحية ترفعا عن شرور هذا العالم ، وتجردا عن سوآته ، فليست السياسة البريطانية فى مجموعها شرا مستطيرا ، ولا تكون مقاومتها بتجنب مطامعها واهمال طرائقها وفيها ما فيها من التقدم بالهند فى طريق الحضارة الوحيدة الممكنة اليوم على ظهر البسيطة. وأى أثر لغاندى بروحانيته ضد البراهمة ، وهو منهم ، حين حاول الأخذ بيد المنبوذين ، ورفع السبة البشرية التى انزلها نظام الطبقات الهندوسى بمئات الآلاف من الآدميين كل ذنبهم أنهم ولدوا خارج الطبقات الأربع المعترف بها ؟

انى مع هذا معجب بغاندى وأمثاله من القادة الروحيين ، معجب بكل فكرة تطهر البشرية من الحمأة . ولكنى افضل بلا تردد كالحضارة اليونانية ، أو ربيبتها حضارة أووربا بعد تخلصا من نير القرون الوسطى . لأنها حضارة وسط بين الروحية والمادية ، ولأنها حضارة تنادى باطلاق العقل البشرى من عقاله ليفكر غير مقيد ، فتشجع الفلسفة ودراسة الطبيعة فى كل أطوارها وأوضاعها ، ولأنها حضارة تقوم على الجمال وعبادة الجمال ، ولأنها تسعى الى المساواة الاجتماعية ، وتهىء للفرد فى الجماعة سبيل المعرفة ، لتمكنه من أن يصبح عنصرا حيا فى بناء العالم ،

يساهم في تقدمه ، وينعم بثمار هذا التقدم ، لا حجرا صلدا يقوم عليه البناء الاجتماعي في سبيل اسعاد أفراد معدودين يسكنون هذا البناء ، ويتمتعون وحدهم بهوائه في الصيف ، ودفئه في الشتاء .

ولست أزعم بأن الحضارة الأوروبية بلغت الغاية التي نادى بها الفلاسفة والمصلحون . فليس لهؤلاء مع الأسف سلاح غير العقيدة والرأى الحر ، بينما يسطو الرجال العمليون على نتاج قرائحم فيسخرونه لأغراضهم . خذ فكرة الاستعمار من ناحية التفكير المطلق : النهوض بالشعوب الفطرية الى مستوى الانسانية المتحضرة ، واشراك هذه الشعوب في موكب البشرية الرائع ، يتجه الى الخير العام ، في ظل السلام الدائم ثم تأمل عمل الشطار الذين تقنعوا بقناعها ، واستظلوا برايتها ، ثم راحوا يقتلون وينهبون باسم الحضارة . كلا لست أقول بأن الحضارة الأوروبية بلغت المثل العليا التي نادى بها الفلاسفة والمصلحون . ولكنى أعجب اعجابا بظاهرة واحدة في هذه الحضارة : **التفكير الحر** . فهو الصمام الدائم تملك به الحضارة اصلاح ذاتها بذاتها . قارن بين أوروبا منذ صيحات « چان هوس » و « كلفن » و « لوثر » واكتشافات « جاليليو » و « كوپرنيكوس » ، وتفكير « أيراسم » و « بيكون » ، وبين الهند منذ فجر تاريخها الهندوسي وهو أقدم من حضارة اليونان . ففي أوروبا خرج الفرد يبحث عن الحقيقة والجمال حتى وجد شجرة المعرفة فأكل منها . وعرف الخير والشر فدونه في الانسيكلوبيديا . وتكشف لعينيه جور الحكام وبقية من الضغط الديني فناقش سياسة الحكم بلسان « مونتسكيو » و « روسو » و « ڤولتير » ثم قام يهدم الباستيل بيد الشعب ، وينادى بنهاية الملكية المطلقة بلسان « دانتون » واليعقوبيين . وكان يسعى طول هذه الأجيال بفكر علمائه نحو تسخير الطبيعة . فكانت قوى البخار والكهرباء والمغناطيسية والاشعاعات ، وكان البترول

فى البر والبحر والهواء . واذ شـــعر بعدوان الســـلطة الجديدة استحوذت على كل هذه القوى برأس المال ، ثار عليها بلســـان « كارل ماركس » . ذلك هو مجمل تاريخ الحضارة الأوروبية منذ نهاية القرون الوسطى حتى آخر القرن التاسع عشر . ومهما كانت الأخطاء التى ارتكبت فان فضيلة هذه الحضارة فى أنها تملك اصلاح ذاتية هى : **التفكير الحر .**

ضع هذه الصورة الى جانب صورة الحضارة الهندية : نصوص مقدسة ، وفقه ، وقصص دينية ، ومعابد دراڤيدية . ثم يجيء « جوتاما ساكيامونى » الملقب بالبوذا ، وينشر تعاليمه المعتدلة من شمال الهند الى جنوبها ، فلا يمض عليها قرن حتى تكون قد أمحت من الهند ، لتعيش فى التبت وبورما وسيلان والصين واليابان . ويتوالى الغزو على الهنــد من الاســكندرية والمغول والبرتغاليين والهولنديين والانجليز ، ومع هــذا لا تزال الغالبيــة العظمى من عشرين وثلاثمائة مليون من الناس تعيش فى حــدود نظام الطبقات الهندوسية : « البراهمية » و « الكشــاتريا » و « الڤيشــيا » و « الشودرا » . كمــا يزال الآلاف منهم يعيشون خارج الطبقات منبوذين ، يدنس ظلهم ــ مثل كلاب ابن حنبل ــ رجال الطبقات العليا . يؤمنون بـ « شيڤا » و « ڤيشنو » و « كالى » و «كريشنا» ومع ذلك ليس لهم أن يقربو باب المعابد .

هل من دليل عقلى واحد تعلل به هنــد الحكماء والشــعراء والفلاسفة أن تكون « برهمانيا » أو « كشاتريا » فتنعم بكل مزايا الطبقة الحاكمة معززا مكرما ، أو تكون « شودرا » فتبقى خادما أو عربجيا ، أو تكون خارج الطبقات فتعيش منبوذا مذلولا ، كأتعس ما يكون عليه المجذوم أو السائمة الجرباء ، فى مجتمع يعلو بالبقرة الى مقام القداسة ، فيغتسل ببولها ويتبرك بروثها ؟ أجل ، تفسر لك هند الحكماء ذلك بانك برهمانى لأنك ولدت برهمانيا ، وانك

منبوذا لأنك ولدت منبوذا . أنظر الى البقرة ، لا الى هذه البقرة الواحدة ، بل الى جميع البقرات الهندية ، لم تنال كل هذا التقديس ؟ لأنها ولدت بقرة .

اجل أنا معجب بروحانية المهاتما (الروح العظيم) ، معجب بخصائص الشرق الروحية ، أود أن أعيش بروحي مترفعا عن الدنايا . أغرمت بأناشيد « الريجفيدا » وببعض فصول « الرامايانا » و « المهابهاراتا » وبالقصة التمثيلية « شاكونتالا » وأفهم صيحة الفخر تصدر عن أمين الريحاني : « أنا الشرق ! عندي فلسفات وأديان ، فمن يبيعني بها طيارات الخ ... »

ولكني وقد عرفت بعض ما أحب أن أعرف عن الهند ، وعرفت بعض ما أحب أن أعرف عن أوروبا ، أشد ايمانا بالغرب وحضارة الغرب . واكرر قولي : مهما كانت الأخطاء التي ارتكبت ، فان فضيلة هذه الحضارة انها تملك اداة اصلاح ذاتية هي : **التفكير الحر** *

الوفاء الزوجي

رأيت في بهو من أبهاء معبد « راميشفارام » بجنوب الهند تمثالين متواجهين لم أكن لأفهم المعنى المقصود بهما لولا قول صاحبي الهندي : « رمز الوفاء الزوجي » . ولم يكن التمثالان من الفن العالي . وان تميز بميزة فهي القبح والسوقية التي أراها في كل صور هذا المعبد وتماثيله . ثم قد كشفا لي عن معنى الوفاء الزوجي عند أهل الشرق عامة .

الفكرة واحدة في التمثالين . في أحدهما يحمل الزوج «جماعته» على كتفيه وقد تدلى ساقاها على جانبي صدره كما تدلى ثدياها في اتجاه رأسه . والزوج فارس هيجاء ، لبس درعه والتأم لأمته . وفي التمثال الآخر تحمل الزوجة زوجها على كتفيها وقد تدلى ساقاه المدرعان على جانبي صدرها في حذاء ثدييها المتدليين . الوفاء الزوجي هنا واضح ، معناه ألا يفترقا في السراء والضراء . يرمز التمثالان الى هذا الوفاء بالاتصال المادي الدائم . وليس ما يمنع أن يقصد بها الرمز الاتصال الروحي الدائم أيضا . ولكني بلا تردد أفضل « پنيلوپا » مثلا للوفاء الزوجي وهي تترقب عودة زوجها في قصرها بـ « ايثاكا » ، يحيط بها الطامحون في الزيجة منها ، يتوسلون اليها باللين والعنف أن تقطع كل أمل في اياب زوجها

« أو دسيوس » فقد انقضت أعوام على سقوط طروادة وعودة جحافل الاغريق الظافرة الى بلادها . وهى تقاوم اغراءهم والحاحهم ولجاجتهم فى أنوثة بديعة . فتعدهم أن تفكر فى الأمر متى انتهت من نسج بدأته وشيكا ، ثم هى تقوم فى الليل لتفتق مارتقت بالنهار.

أما أن يرمز الى الوفاء الزوجى بذلك الاتصال المادى المكره ، حيث يحمل الزوج زوجته وهو شاكى السلاح ، وتحمله زوجته شاكى السلاح أيضا ، فهذا نوع من الوفاء يذكرنى باختلاط معنى العفاف عندنا . فليس العفاف فى مصر أن تترك المرأة حرة تخالط الرجال فتحافظ على عهدها وواجبها ، وانما العفاف أن تعزلها عزلا تاما عن الرجال فتحافظ على عهدها وواجبها ، وانما العفاف أن تعزلها عزلا تاما عن الرجال غير زوجها ، وأن تدفع عنها عين السوء .. حتى ولو بالفاسوخ وأن ترسل زغراتك الى الرجال فى الطريق ، أو فى مدخل السينما ، حينما يختلسون النظر ليشاهدوا جمال زوجتك ورشاقتها وأناقتها ، وأن تمنعها من تسلم خطابات باسمها ، ومن الخروج وحدها ، وتحيطها بالجواسيس من الخادمات والبوابين وبائعى الكازوزة ، أن تكاد تمنع عنها النور والهواء ثم تقول : امرأتى عفيفة ! هذا الفارس الذى يحمل امرأته فى حله وترحاله ، وهذه المرأة التى تحمل زوجها ملتثما ملسلحا ، هذان التمثالان القبيحان فنا ومعنى فى معبد « راميشفارام » ، كشفا لعينى عن معنى العفة المكرهة .

ولقد ذهبت الهند فى اكراه المرأة على الوفاء لزوجها مذهبا كان أسوأ أنواع الاجرام المنظم . اذ حكمت على الزوجة الا تعيش عقب زوجها ، وأن تحرق حية مع جثته فكانت تحمل فى محفة يحوطها أهلها مهللين مكبرين ، وقد ألبست أفخر ثيابها وحليت بكل حليها . ثم توضع قسرا فوق جثة الزوج المددة على ايوان من أخشاب الصندل ، ويصب البراهمة الزيوت ، ويوقدون النار فى

جوانب الايوان مرتلين فيلتهم الأتون المزغرد جثة الزوج وجسم الزوجة البض النابض .

ومهما قيل فى نير الاستبعاد البريطانى . فقد كان الفضل للدولة الحاكمة فى أن تقضى على هذه العادة الوحشية بقوة القانون ، بعد أن حاول الانجليز أكثر من قرن ايقافها بقوة الاقناع . فكانوا لا يصرحون بحرق الأرملة حتى تقف أمام الموظف الانجليزى ، وتعلن رغبتها التى لا مرد لها فى أن تحرق وجثة زوجها . على أن لملوك الهند المسلمين (المغول) فضل الأسبقية فى تحريم هذه العادة اينما امتد حكمهم . ومع هذا ـ والى اليوم ـ لا يزال حظ الأرملة الهندوسية من أعثر الحظوظ . يفرض عليها ألا تلبس سوى غلالة بيضاء بسيطة ، والا تتحلى بغير حبل فى عنقها يدل على ترملها ، وأن تحلق شعرها حلقا تاما فى كل شهر مرة . ولن أنسى ذلك المخلوق الأقرع ، رأيته يهيم على شاطىء قناة « بكنهام » بين « مدراس » و « ماها بالى پورام » فى غلالة بيضاء قذرة لا يقرب الناس ولا يقربونه ، وسألت صاحبى : أهو مجذوم ؟ فأجابنى : بل هى أرملة !

اننا نتشدق بالحكمة « مكره أخاك لا بطل » ، ولكننا نعمل على تكذيبها . فقد ذكرنى رمز الوفاء الزوجى فى معبد « راميشبڤارام » بأن منا من يكره النساء على العفة ، ويحبس الزوجات على الوفاء ثم يشير الى أوروبا فى صلف الجهال قائلا : أنظر الى الفساد الضارب فى أعطاف المجتمع الغربى نتيجة حزية . الاختلاط .

فاذا كنا الى عهد قريب نرى القذى فى عين أوروبا ، ولا نرى

جذع النخلة في عيوننا ، فقد كان لنا على الأقل بعض العذر ، حين كان الفساد الضارب فى حياتنا الزوجية يعمل فى الظلام كالنمل الأبيض فلا يبقى الا على مظاهر نخرة أما اليوم وقد ارتفعت الغشاوة عن عيوننا ، فرأينا الفساد الاجتماعى لا يمنعه كبت حرية المرأة وتجريدها من حقوقها الطبيعية ، فهل نصر على أن نخفى رؤوسنا الصغيرة كما تفعل النعامة فى الرمال ، ونطمئن الى طهارة مجتمعنا ما بقيت نساؤنا رهينات المحابس ، قعيدات البيوت ، ممنوعات من الاختلاط بالرجال ؟

جوتاماساكيامونى

عقب عودتى من المحيط الهندى ، ذهبت أشاهد معالم القاهرة مع صديقى الكوماندر ف ... ضـابط الملاحة . ودخلنا نزور المغاورى ، وهو مدفن مؤسس طائفة ورئيس تكية ، يصل اليه الانسان فى نهاية مغارة من مغاور المقطم رأينا فى حرمه شـابات يتمرغن على البلاط متضاحكات كأنهن يتابعن لعبة من اللعبات . وسألنى الكوماندر عن هوية أولئك النسوة فأجبته :

ـ يشكين العقم ، ويتقدون فى قدرة المغاورى على شفائهن .

وارتسمت على شفتيه العريضتين ابتسامة بقيت حتى خرجنا من ظلام الضريح الى حديقة التكية واتجهنا الى جبهة الجبل جوار قبر أمير مصرى . وهناك جلسنا على دكة عالية نشـاهد بعض القاهرة تظهر لنا عن بعد خلال فرجة فى الصخر الجيرى . وبعد هنيهة قال لى :

ـ أى بون شاسع بين مصر والهند ! هنا المرح والفرح يضىء نفوس الشاكيات حتى فى ظلام المسجد ، وعند أقدام ضريح ولى الله . وهناك الكآبة حتى فى بهجة أعياد الهندوس .

ـ هنا الأمل وهناك اليأس استحكمت حلقاته يا عزيزى ف ...

اتدرى ما الفرق بين الهندوسي والمسلم ، بل بين الهندوسي واغلب سكان الأرض ؟ اعتقاد الهندوسي بتناسخ الأوراح .

ـ وما علاقة هذا بكآبة الهندوسي الدائمة ؟

ـ في الموت راحة لك انت المسيحي ، كما فيه راحتي انا المسلم ، انتظارا لما نناله في الآخرة جزاء وفاقا لأعمالنا في دنيانا . ولكن الموت لا ينهي عذاب الهندوسي . فروحه تعود الى الحياة متقمصة في جسم آخر ، قد يكون انسانا أو حيوانا ، عالي المقام أو مرذولا محروما ، تبعا لقضاء الآلهة وفق ناموس التناسخ . لك ولي عقاب واحد وثواب واحد في أسوئها نذهب الى النــار ، وفي أحسـنها ندخل الجنة . أتعرف ماهو الثواب الأكبر الذي تتوق اليه روح الهندوسي يعذب جسده بالحديد والنار ، وقد بلغ غاية السمو الروحي بالعزلة والتقشف والتأمل ؟ أن تتخلص روحه من حلقة التناسخ المفزعة ، فلا يولد من جديد .

ـ وأين تذهب روحه ؟ أفي شبه سمائنا المسيحية ؟

ـ ليس للهنــدوسي سماء كسمائكم ولا جنــة كجنتنا . انما السعادة التي تتوق اليها روحه هي بلوغها « البرهمان » أي العدم .

ـ لم اكن أحسب أن دينـا من الأديان ينتهي بهـذا الثواب السلبي . أيمكن أن يوجد من يعتقد بالعدم ؟

ـ هو نوع من العدم عسير الفهم علينا . والواقع أن الروح حين تبلغ « البرهمان » أو « النيرفانا » تفنى في الروح الكبرى التي هي الأصل والفرع . روح براهما ، الثالوث الذي هو واحد ، والأحد الذي هو ثلاثة . أو هي تعود اليه كما تعود نقطة الماء الى الاقيانوس العظيم . فالنقطة موجودة بحكم أنها لم تفن . ولكنها تلاشت في مياه الأقيانوس ، فهي فانية فيه وهو باق .

ـ دعنا من هذا ، فلا قبل لى بهذا الشخص وتلك الشعوذة يا عم حسن (هكذا يدعونى ف . . .)

ـ ولكنى أردتك أن تفهم سر كآبة الهندوسى الدائمة ، سر ذلك التجهم يرفرف على كل ما هو هندوسى . وتلك الأثقال التى ترزح تحتها روح الهندوسى حتى لا تنجو منها وانت تزور معابدهم ، أو تتصل عن قريب أو بعيد بحياتهم . أننى حين خرجت من الهند ، شعرت بشعور سجين القبو يخرج الى النور والهواء والحرية . كان كل شيء بها ثقيلا على نفسى بما ابتعثه فيها من ضيق ويأس واسى على الانسانية ترسف فى سلاسل العقائد القاسية .

وانحدرت وصديقى الكوماندر من أعلى التل نحو القاهرة لنقضى يوما من أيامنا الأرضية طالما تمنيناها ونحن فى سجننا البحرى على تلك السفينة العلمية الصغيرة . هو فوق ممشاه يطالع النجوم ويستطلع الأفق ويسبر الأعماق ، وانابين شباكى فى توقيت وملاحظة وفرز وغسيل ، أو وسط معملى فى جمع وترتيب ومطالعة وتدوين .

ولقد انسانى ف . . . بضحكه العالى ونكاته ، كما انسانى ما احاطنا فى تجوالنا من ضروب الجمال الدنيوى ، تلك الغمة النفسية التى كادت تتملكنى نتيجة الاسترسال فى الفلسفة الهندية .

ولكنى ما كدت أخلو بنفسى حتى وجدت الظلام يكتنفها رويدا رويدا ، يتسلل وئيدا كما يتسلل الليل صيفا فى البلاد الشمالية . فان ملاحظة الكوماندور فى مقام المغاورى ، تلك الملاحظة العاجلة التى أسرعت بتفسيرها له ، لم تكن قد تعدت بعد دائرة تفكيرى ، ولم يك تفسيرى لها الا محض رد فعل ذهنى . واذ خلوت الى نفسى بعد منتصف الليل . كانت الملاحظة قد بلغت ينابيع شعورى ، فأعادتنى الى تلك الهند التاعسة ، وذكرتنى بكآبة الهنود وجو المعابد الهندوسية المرهق .

وما زلت أذكر لحظة ركبت فيها المعدية بين « دانوشكودى » فى جنوب الهند . و « تالايمنار » فى شمال سيلان . فقد وليت ظهرى حينئذ لعالم مرعب ، تسكنه آلهة ترتعد لمنظرها الفرائص تقوم على حراستها تماثيل وحوش خرافية ، تطالعك من قباب المعابد وفوق أبوابها ، وكأنها تقطع ما بينك وبين رحمة السماء لتخضعك لأسيادها الافظاظ غلاظ القلوب ، ذوى رؤوس الفيلة ، وعيون السمكة وأجساد القردة .

واذا لم تتمكن ضحكات ف ... ونزهتنا المصرية فى انحاء القاهرة من دفع الكآبة التى ابتعثتها الهندوسية فى نفسى ، فقد استطاعت ابتسامة واحدة فى احراج سيلان من رفع الغشاوة التى ضربتها على قلبى وعينى معابد الهند وآلهتها . وهى . وهى ابتسامة تمثال قد من صخر ، انقذته الأيادى البارة من العفاء تحت النبت الاستوائى الذى أغار فى سيلان على مدن كاملة ، فدفنها بين جذوره الملتوية وتحت أوراقه المتناثرة . ولقد تحدثت فى مكان آخر عن « آنوارد ابورا » احدى المدن التى دفنها الحرج الاستوائى . ولا يهمنى من أمرها الآن سوى هذا التمثال القائم فى فرجة افتتحتها يد المنقب الأثرى فى غابتها المتشابكة ، وابتسامته الساحرة التى أنقذتنى من هول الأصنام الهندوسية « كالى » و « شيڤا » و « جانيشا » .

تلك هى ابتسامة « سيدهارتا جوتاما ساكياموتى » الملقب بالبوذا ، والذى يدين بتعاليمه اليوم مائة وثلاثون مليونا من سكان آسيا .

فقد عاش البوذا ومات ببلاد الهند منذ خمسة وعشرين قرنا ، فى حقبة الدهر اليقظة التى عاش فيها « فيثاغورس » و « اسكيلوس » بأرض يونان ، و « أرميا » و « حزقيال » فى بنى اسرائيل .

و « زرادشت » صاحب شريعة المجوس فى ايران . و « لاوطسى » و « كونفيوشيوس » فى الصين . وخضع البوذا للعقائد الهندوسية القاسية مغلولا فى فكرة التناسخ . فاذا كذب على مربيته قالت له « حذار أوتولد مرة أخرى فى هيئة أفعى » . واذا رأى مسكينا أو مقروحا سمع والدته تقول « سامسارا ! حلقة الحياة المفزعة . هذا رجل اذنب فى ميلاد سابق » . أما الرجل الناعم يحظى باحترام الناس ، فقد ولد كذلك نتيجة أعمال صالحة قام بها فى تناسخ مضى .

ولد « سيدهارتا » فى اقليم « النيپال » بلاد الجوركا ، وسط غابات « الصال » الرفيعة ، وحقول الأرز المصفرة ، حيث ترى الضياع والقرى رابضة عند أشجار المنجة والتمر هندى ، ولد عند أقدام جبال « النيبال » السوداء . ترتفع خلفها هامات « الهيمالايا» رافعة قناتها الشامخة يتوجها الجليد الأبدى .

من أسرة « جوتاما » النبيلة ، أمه « مايا » وأبوه سيد عشيرة « ساكيا » ، كبر وترعرع فى بحبوحة . احب وتزوج فارع القوام وسيم الطلعة ، ساحر الصوت قوى الذراع سديد الرماية . رغد العيش لولا عقل جبار أبى عليه أن يستسلم لأوضاع الحياة التى اقامتها حول مشاعر بنى جلدته عقيدة كلها شقاء ، واحتبست فيها عقولهم فلسفة دينية كلها تشاؤم .

غادر ابويه والزوجة المحبوبة . وانهم ليحاولون بمجهود أخير اضعاف عزيمته ، فيكشفون له عن طفله النائم مفتر الثغر بادى الغمازات فى أطرافه العارية . واذا به يقول « وهذا أيضا قيد آخر يجب ان اكسره لأتخلص » ، ويخرج الى الغابة وقد تخلى عن كل ما يربطه بهذا العالم . وراح يبحث عن الحقيقة فى ضروب التقشف الهندوسى من جوع وتجريد وتعذيب ، حتى انهك قواه ، والتصق

جلده بعظمه بعد ست سنوات من هذه الحياة الشاقة . صحا ذات مرة من اغماء طويل ، ولم يلهمه تقتيل الجسد طريقة للخلاص ، فعدل عن الصوم والتقشف ولكنه لم يعدل عن التفكير والتأمل بحثا وراء الحقيقة . فهجره تلاميذه الخمسة وهم يتهمونه بالردة . وواصل التجوال وحيدا حتى بلغ بلدة « بوداجايا » قرب « بنارس» ، وقد شعرت نفسه بالسام ولكن اليأس لم يتطرق اليها .

واذ كان جالسا تحت شجرة جميزة يستظل من هجير يوم شديد القيظ ، أو يستروح نسمات الأصيل ، جعلت روحه تنتقل من تجرد الى تجرد ، وعقله الباطن يرتفع رويدا حتى استضاءت بصيرته بنور العرفان .

« وحينما بلغت هذا ، شعرت بأن روحى قد خلصت من سوأة الشهوات ، وسوأة الخطل ، وسوأةالجهالة . ومنذ تلكاللحظة عرفت أننى لن أولد ثانيا ، ولن أعود الى العالم » .

ومنذ اللحظة التى حلت عليه فى ظلال شجرة « البودى » فى الربع الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد ، لقب « سيدهارتا جوتاما » بالبوذا ، أى الحكيم .

وقد طوف فى طول الهند وعرضها خمســـة وأربعين عاما بعد تلك اللحظة . يأتزر بالازار الأصفر اللون الذى يلبسه الرهبان البوذيون الى اليوم ، عارى القدمين ، يحمل صحفة الأرز الذى يجود به عليه الأقيال والأمراء وعامة الشعب ممن سحرتهم أحاديثه العذبة ، ونفسه السامية فى تواضعها .

وحين أوفت ســنه على الخامســة والثمــانين ، أصــيب بالدوسنطاريا من جراء أكلة قدمها له حداد فقير ، فشــعر بدنو أجله . وخشى أن ينال الحداد ضر بسبب وفاته ، فأوصى صفيه

«أناندا» بأن يذهب اليه بعد موته فيخبره بأن وجبتين كان لهما عند « سيدهارتا » مقام خاص : الأولى هى التى بلغ على أثرها الحكمة تحت شجرة « البودى » ، والثانية أكلة الحداد التى بدأ يدخل بسببها فى « النير ڤانا » سبيل الخلاص النهائى .

وحاول بمجهود أخير أن ينهض وسار بضع خطوات ، ولكن قواه خانته مرة أخيرة . فرجا تلميذه وصفيه « أناندا » أن يرفع عنه ازاره لينشره تحت خميلة قوامها ثلاث أشجار من الصندل . وتمدد فوق ازاره ، وأسند رأسه الى ذراعه . ثم التفت الى صفيه وكان يبكى ، فقال :

« كفكف من عبراتك يا « أناندا » . الم أخبرك بأن فى طبائع الأشياء أن نفارق أعز الناس علينا ، وأقربهم الى قلوبنا ؟ »

وأشار الى جسده قائلا « هذا المزيج يجب أن يتحلل الى عناصره ويتلاشى ! »

« لا يحولك شأن من الشئون عن مواصلة جهادك الروحى يا « أنا ندا » . وسوف تخلص من سوأة الشهوة الملحقة ، وسوأة الكينونة الفردية ، وسوأة الخزعبلات والجهالة ! »

« رب قائل فى نفسه يا « أناندا » بعد فنائى ، خفت نبس المعلم ، فلا معلم لنا بعده . كلا ! فالمبادىء والتعاليم التى لقنتكم اياها هى استاذكم بعدى » .

« والآن وداعا ايها الاخوان . كل شىء هالك ، مآله الى الزوال . تلك طبيعة الأشياء . واصلوا جهادكم حتى تبلغوا سبيل الخلاص »

بهذه الكلمات اختتم حياته « سيدهارتا جوتاما ساكيامونى » الملقب بالبوذا . وكان ذلك فى أواخر سنة ٤٨٠ قبل الميلاد ، على ضفاف نهر « هيرانيا ڤاتى » .

فما هي الحكمة المودعة في نفس البوذا ؟ وما سر الابتسامة التي استقبلتني في احراج سرنديب ، فسري عن نفسي ما أصابها من قسوة العقائد الهندوسية ؟

« يا أيها الرهبان ! تلكم هي الحقيقة السامية عن الآلام : الميلاد عذاب ، الشيخوخة عذاب ، المرض عذاب ، الموت عذاب ، فراق ما نحب عذاب ، فوات مانتوق اليه عذاب . وقصارى القول : « التعلق بالحياة عذاب » .

« تلكم ، أيها الرهبان ، الحقيقة السامية عن سبب الآلام : الظمأ ــ وهو أصل الميلاد المتكرر ــ تصطحبه الشهوة واللذة التي تلقى متاعها هنا وهناك . وهذا الظمأ مثلث الفروع ظمأ اللذة ، وظمأ الحياة ، وظمأ الثراء »

« تلكم ، أيا الرهبان ، الحقيقة السامية عن وقوف الآلام : تقف الآلام بوقوف هذا الظمأ . وهو وقوف لا يتأتى الا في غياب العواطف . تقف التخلي عن الظمأ ، بالاستغناء عنه ، بالتخلص منه ، بالقضاء على شهوات النفس » .

« تلكم ، أيها الرهبان ، الحقيقة السامية عن السبيل الى وضع حد للآلام : هو السبيل ذو المسالك الثمانية ، صدق الايمان ، وصدق الحديث ، وصدق السلوك ، وصدق الكسب ، وصدق الاجتهاد ، وصدق التفكير ، وصدق التأمل » .

في هذه الكلمات ــ وقد اتفقت النصوص على أنها كانت أول ما قاله « سيدهارتا » بعد أن هبطت عليه الحكمة تحت شجرة « البودى » ــ أركان العقيدة البوذية .

وليست عقيدة فلسفية تبحث عن أصل الوجود . كما أنها لا تستعين بقوى خارجية ، خارقة للمادة . ولا تعد الانسان بمعونة

فى الضراء خلا المعونة التى يمكن أن يتلقاها من نفسه . فالبوذى يقف حيال برنامج بسيط ، هو خلاصة صراع ذهنى بين الرجل ونفسه ، يجب أن يخرج منه ظافرا .

وهذه الأركان الأربعة (او الحقائق السامية) قامت عليها حياة البوذا نفسه. فقد اطلع على شقاوة الناس فرائس الأمراض والشيخوخة والموت ، وشعرت بآلام فراق الحبيب ، وقرب غير المحبوب ، وفوات ما تتوق اليه النفس . ولم يقف أمام كل هذه المشاعر مكتوف اليدين ، ولم ينكس رأسه يأسا . وانما راح يجاهد منتزعا نفسه من كل صلة فردية بهذا العالم ليجد السبيل الى الخلاص من حلقة التناسخ الأبدية ، تلك الحلقة التى اطبقت على عقول فلاسفة الهند دهورا ، غير معتمد على معونة أحد سوى نفسه . فماذا تستطيعه آلهة الهندوس وهى نفسها أسيرة حلقة التناسخ فى مقامها السماوى ؟ انها لشبيهة بالانسان ولو فى مستوى اعلى ومقام مكين . وربما كانت ظالمة غشوما ، أو مترفقة رحيمة . ولكنها لم تخلص الهند الوثنية من الآلام . ولم تخلص حتى نفسها من وطأتها .

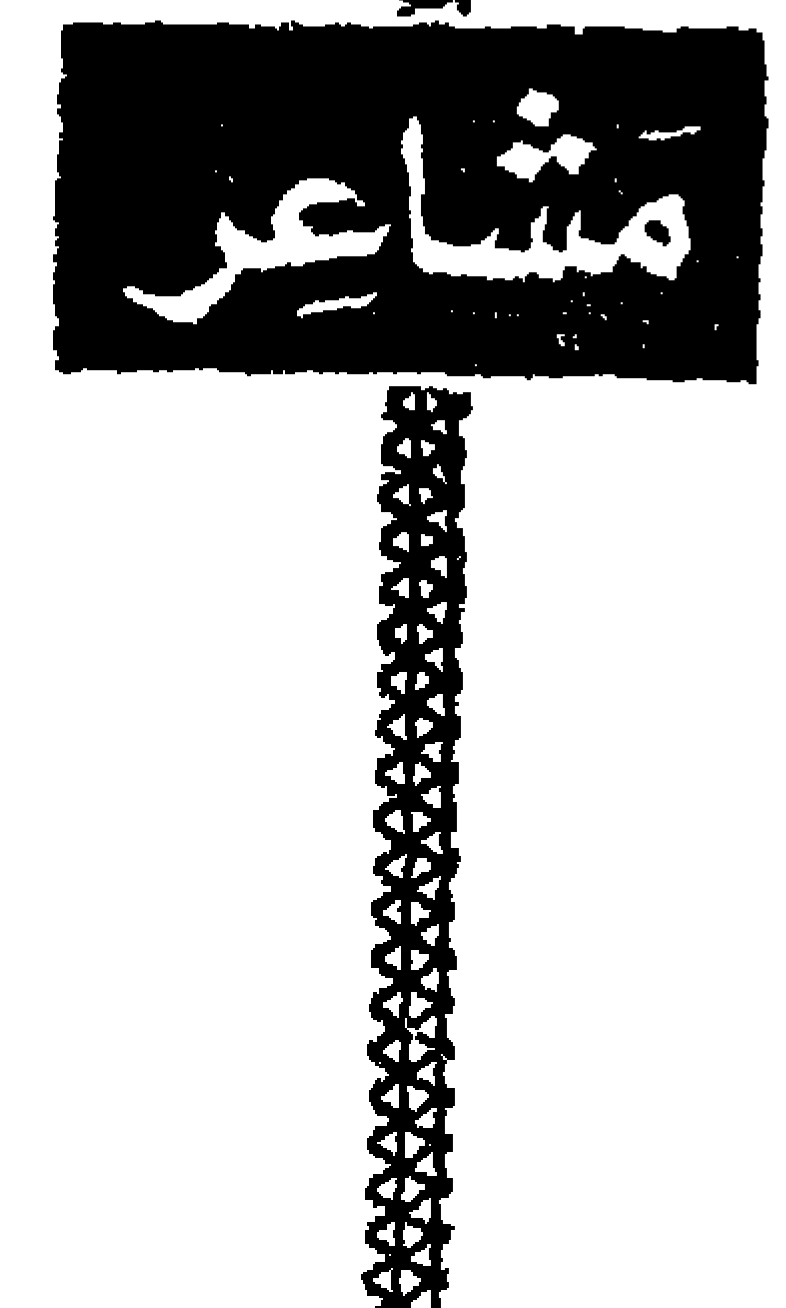
فليبحث «جوتاما» الحكيم كيف يعبر الى الشاطىء الآخر حيث يستكن القلق ، وحيث ينفصل الأزلى عن الزائل . حينئذ يمكنه أن يواجه البشرية يعلمها كيف تعبر بحر الحياة اللجى وعلمه نبراس يهدى العالم المغمور فى دياجير الجهالة والشقاء .

جاء البوذا فى وقته ، ليخلص الهند من حظها العاثر فى آلهتها القساة وفلسفتها المرهقة . جاء يقضى على نظام الطبقات الظالم ، فيرفع الوضيع الى مقام العاهل الظاهر وقد نجحت رسالته نجاحا تشهد آثاره اليوم ... ولكن فى غير الهند فبعد أن جاء الامبراطور العظيم « آزوكا » وحمل رسالة البوذا الى أطراف الهند ، وأرسل ابنه «ماهيندا» يبشر بها فى جبال سرنديب ووهادها ، لم يحل

القرن السادس الميلادى حتى كانت البوذية قد شردت فى الهند تشريدا لتطرد فيما بعد طردا . وعادت الآلهة القديمة الى قدس أقداسها ، تنضح بالزيت وتنثر لها الأزهار ، وتخرج فى مواكبها المروعة ، ليرتمى تحت دواليب عرباتها آلاف الناس ، استسلموا لكهنتهم حين عجزوا عن فهم رسالة البوذا الروحية .

ولكن من يدخل المعبد الهندوسى كما دخلت ، ويرى الآلهة ترمقه بعيون جامدة فى شراستها ، ويملأ عرانينه عبق البخور مختلطا برائحة الزيت ومياه الخزانات الآسنة تغتسل فى مياهها بشرية ملهوفة ، ويرى الرجال تنبطح انبطاحا أمام الثور « ناندى » وعلى وجوههم سيماء الرعب والكمد واليأس والأسى ، اقول ان من يرى هذا المنظر ويحس بمعناه كما رأيت وأحسست ، لا يتمالك أن يشعر بتعاسة هذه الانسانية ، ووطأة حلقة التناسخ على أرواحها . ويتنفس الصعداء حين يولى ظهره — كما وليت — جنوب الهند فى « دانوشكودى » ، ويتوجه شطر شمال سيلان البوذية فى « تالايمنار » — التى انطلق بها فى صميم نفسى « طلايع المنار » — وينزل بمدينة « آنوراداپورا » يتجول فى أرجاء حرجها الاستوائى. فتوقفه وتأسر لبه ابتسامة هادئة ، انطبعت على وجه تمثال من الصخر لرجل جالس جلسة شرقية .

هـذا الرجل هو « سـيدهارتا جوتاما ساكيامونى » الملقب بالبوذا .



- منفى الزعيم
- نسائيات
- حياة البحار
- تلك السفينة

منفى الزعيم

بلغنا فى الهزيع الأخير من الليل مجموعة جزائر سيشل . وانتظرنا انبلاج الفجر لنتمكن من اجتياز الممرات الملاحية وسط الشعاب الى بور ڤيكتوريا فى جزيدة « ما هى » . ولا أحسبنى أنسى يوما جمال تلك الجزائر ، أقدامها فى مياه المحيط وذؤاباتها مجللة بالسحب البيضاء .. وهى ترفل فى حلل من الخضرة الاستوائية. وكان أول خاطر عبر ذهنى اذ نظرت من نافذتى المستديرة : هذا هو المنظر الذى تلقى الزعيم الشيخ وقد حمله سفينة الغاصب من السويس فى بهمة الليل ، حين قابل القوة الغاشمة بقوة الحق واليقين .

كما كان أول ما حدثنى به التاجر اليمانى الذى صعد الى سفينتنا فى ميناء عدن هو أنه رأى زعيمنا الشيخ المهيب عند وصوله الى عدن ، وكان ضمن من تهافتوا على يده فقبلوها .

وكان أول ما طلبت من دليلى فى « ما هى » أن يأخذنى الى بيت الزعيم . فتسلقنا التلال السندسية سالكين سبيلا غير مطروق ، الى منزل منفرد متكىء على صدر الجبل القشيب تلقتنا بيانه أسرة محام مجوسى قدر فينا عاطفة الحجيج ، فطوف بنا فى أرجاء

« البنجالو » الذى أعد لاقامة الزعيم الشيخ وصحبه واشرفنا من منظرته على ميناء فيكتوريا والبحر ترصعه الشعاب وارفة الظلال. ثم اخبرنا بأن « الباشا الكبير » لم يحتمل البقاء فى هذا المرتفع فأسكن فى المدينة قرب الميناء . وبقى صحبه هنا طول مدة منفاهم . ولما كان مقام الزعيم فى المدينة قد تحول الى مكاتب شركة « الايسترن»، فقد انتهيت الى استيحاء ذكرى الشيخ الذى كان محط شباب الجيل ، فى هذا المقام الجبلى الساحر ، ما دامت عيناه قد اشرقتا يوما بما يمتد اليه طرفى. عصر ذلك اليوم المبارك فى حياتى الجوالة .

وقفت لحظة بعيدا عن الجماعة اتأمل رواء جزيرة « ماهى » . وقد طارت بي أجنحة الذكرى آلاف الأميال ونيفا وعشر سنين الى اللحظة التى حملتنى فيها قدماى حثيثا الى منزل بحى « الانشا » كان هو أيضا محج الشباب والشيوخ يوم تضافرت جميع القوى الغشوم على أن تمنع وصولنا . كنت مدفوعا برغبة أقوى من استبداد الحكم فى ان أرى الزعيم عن قرب ، وأسمع صوته ، والمس يده الطاهرة .

دخلت البيت العتيد ، وارتقيت سلمه الجانبى الى حيث وقفت جماعة تنصت الى صوت لم أسمعه من قبل . ولكنى لم أشك بأنه الصوت الذى حدثنى عنه صاحب سمعة قبلى ، وكان صحفيا بارزا فى صف المعارضة :

ـ تنصت الى خطبه كانك تسمع سمفونية من سمفونيات بيتهوفن .

ولقد ادركت ، وأنا شاب أنصت من خلف الجماهير دون أن أرى المتكلم ، انني أعيش لحظة من تاريخ بلادى سوف أحدث بها أبنائى وأحفادى وهم لا يكادون يصدقون أننى عشت تلك اللحظة .

ولم أفهم أو أحاول أن افهم ما يقول ، وانما انصت كما أنصت الى ترتيل لاتهمنى كلماته ، او الى موسيقى الفيولونسيل تصحبها موسيقى أوركسترا كامل لا دخل فيه للصوت الآدمى .

ثم استطعت أن اتسلل حتى أبلغ الصف الأول فارى الزعيم ، وأحقق على وجهه المعانى المتدافعة التى ابتعثتها فى نفوسنا مواقفه المجيدة . ورأيت الشيبة الباهرة ، والوجه المحمر ، والعيون المغولية تبرق ذكاء وهمة من تحت الحواجب المشتعلة بياضا ورأيت قبضة اليد القوية على خشب المكتب كما سمعت بها ضمن ما سمعت عن حياة هذا العماد الصلب قد من صوان مصر . ولمست هذه اليد مصافحا وقد اودعت لمستى كل معانى الحماس والحب والاعجاب ، يحتويها قلب ابن عشرين .

وكان رفقائى فى سيشل مشتغلين بتصوير المنزل والتحدث الى أصحابه عن اقامة المنفيين فيه . ولكنى بين جمال تلك الطبيعة الكريمة وسط المحيط الهندى ، ومواكب الذكرى نسيت وجودى فى سيشل . وجعلت اتابع الزعيم من مصر الى مالطة ، الى فرنسا، الى مصر . ثم الى سيشل وعدن وجبل طارق ثم الى مصر مرة اخـرى .

رأيته فى موكبه الظافر يوم عودته الأولى بعد منفى مالطة وجهاد فرساى ، حيث اجتمع لصوص الأمم الضعيفة .

ورأيته يخطب العمال البريطانيين فى شبرد ، فينادى الحرية التى تكون فى بابل وتنتقل الى مصر ويونان وروما ، ويتمثل بقول « هردر » فيها .

ورأيته يخطب بعد عودته من سيشل فيحدثنا حديث الأب البار عن منفاه فى المحيط الهندى . ويذكر رفاقه واحدا واحدا فتترقرق فى عينيه عبرات .

رايته فى عربة مزركشة يذهب الى افتتـاح البرلمـان الأول ورأيتنى على شاطىء عابس فى طرف فرنسا الشمالى الغربى أطالع خبر وفاته ، فامسك بيد صديق لى هو مواطنى الوحيد بذلك الصقع الموحش ، وكأنى وجدت فى قربه العزاء الوحيد فى محنتنا الوطنية الكبرى .

رأيته ... ورأيته ... ورأيته . وكان خياله المهيب ماثلا أمامى فى كل خطوة خطوتها على ظهر هذه الجزيرة الفتانة . وما سألت عن جوها ومناخها حتى تساءلت فى نفسى « ترى كيف تحملت بنية الشيخ العظيم هذا المناخ الاستوائى ! » وحين عرفت بأن الملاريا لا وجود لها فى سيشل ، شكرت العناية التى حفظت حياته الغالية ، مع أنه كان قد طوى فى ترابه حينئذ سبع سنين .

واذ التقيت ببعض أمراء « لحج » يتريضون فى شوارع «ماهى» وارفة الظلال ، وعرفت بأنهم منفيون ، ذكرت أن خطوات زعيمى قد سبقت خطواتهم فى هذا الطريق المظلل . وأن لكل من تلقى به آراؤه الحرة على ظهر هذه الصخرة النائية أن يفخر باتصال مجده بمجد الزعيم الخالد ، الذى عانى ما عانى فى سبيل تحرير بلاده ، لا فى عنفوان شبابه ، وانما فى انحدار شيخوخته ، حين يطلب الأبناء لآبائهم الحياة الوادعة ويحتملون عنهم الكريهة والهوان .

هذه « ماهى » عاصمة جزائر سيشل ، منفى الزعيم الذى لم يقهر ، موطىء أقدام الحرية التى لا تغلب ، واد مقدس قدر لى أن أحج اليه فى سفينة مصرية يرفوف عليها العلم الأخضر ذو الهلال المثلث النجوم .

نسائيات

ما أشقى الحياة بلا نساء ، وما أشـقها بصحبتهن ! احب ما فيهن الى نفسي أن يكن مصدر هذه الشكوى المزدوجة التى يكاد ينقض آخرها أولها . ومع أنى شديد الشعور بها ، مخلص فى التعبير عنها ، الا انى لست فى الحق صاحبها . وانما أنا اترجم بتصرف كلمة اللورد بيرون المشهورة « اعجب العجب أن الحياة لا هى ممكنة بغير النساء ، ولا هى ممكنة بصحبتهن ».

Traduttore traditore ، فقد تصرفت بالترجمة الى درجة كشفت عن ضعفى وانحيازى الى جانب النساء . وأين انا من « داندى » القرن التاسع عشر تتخاطفه نساء الأرستقراطية الايطالية لجماله وجمال شعره ، ولشـهرته وشهرة شعره ، فيلقى فى وجوههن بتلك الجملة العذبة القاسية ، التى تنطوى على التحقير والسخرية والحب والاعجاب بالمرأة التى لا تمكن الحياة بدونها ... ولا بها !

انما قلت « ما أشقى الحياة بلا نساء » ولم أقل وما أشقاها بصحبتهن ، بل وما أشقها . ولتفسر قارئاتى كيفما تفسرن ما تنطوى عليه هذه المشقة ، مادام الشطر الأول يدل على أنى قابل بكل ما تنطوى عليه صحبة النساء من مشقة فى سبيل الا اشـقى بسبب غيابهن عن حياتى .

كنت شقيا فى رحلتى بالمحيط الهندى لأن تسعة أشهر من حياتى انقضت بغير النساء أو كادت . وأرجو أن يفهم بلا لبس مقصودى من غياب النساء . فلست اعنى الأنثى لمجرد أنها انثى . انما المرأة عندى هى الزوجة أو الرفيقة أو الصديقة أو من نلتقى بها فى المجتمع أو من تمت الينا من قريب أو بعيد بصلة القربى . كل واحدة من هؤلاء زينة الحياة الدنيا مادمنا نشعر نحوها بعاطفة حب أو اعجاب أو احترام أو حنو أو عطف . هى « ست الحسن والجمال » التى تحدثنا بها الحدوتة « اذا ضحكت أشرقت الشمس، وان بكت اكفهر الجو وأمطرت السماء » . وليس من المهم عندى أن اكون « شارها حسن » مادامت ابتسامتها تضىء أرجاء نفسى التى تدلهم اذا ما بكت . هذه هى المرأة التى كنت شقيا بدونها فى المحيط الهندى ، لا مجرد الأنثى .

ولعلى فى رحلتى الهندية أقرب الى السندباد البحرى منى الى ابن بطوطة ، فقد خلت رحلات السندباد السبع — أو كادت — من ذكر النساء (ماتت المرأة التى تزوجها فى الرحلة الرابعة ودفنوه معها حيا حسب عادة البلاد « حتى لا يتلذذ أحد منهم بالحياة بعد رفيقه . فقلت له بالله ان هذه العادة رديئة جدا وما يقدر عليهـا أحد الخ . . . » . وتزوج فى الرحلة السابعة المرأة التى عاد بها الى بغداد « وتا بالى الله تعالى عن السفر فى البر والبحر ») . وكانت كلها تبدأ بتجهيز المركب للتجارة ، وتنتهى بتحطيمها على شواطىء مجهولة . كما خلت رحلاتى العشر من ذكر النساء — أو كادت — وكانت كلها تبدأ بتجهيز السفينة للكشف العلمى ، وتنتهى بارسال أذخار من المعلومات والنماذج الى جامعة انجليزية كبرى . وكانت هذه المعلومات والنماذج فى الحقيقة كمعانى ابن الرومى فى المجاز . تغوص عليها أجهزتنا العلمية فتخرجها من طبقات المحيط المختلفة حتى أعماق خمسة آلاف متر . واذا كانت رحلات السندباد السبع قد انتهت به الى الثراء والنعمة ، فان رحلاتنا العشر كانت انتصارا

باهرا للعلم فى القرن العشرين . ولو أنها انتهت فيمايختص بشخصى على الأقل بنهاية تشبه ما كانت تصل اليه حالة السندباد فى منتصف كل رحلة . وقد خرجت منها خروج أغلب الناس من المولد . ولست ممن يتهم بقليل أو كثير من الحمص لو لم يكشف لى غيابى عن مصر تسعة اشهر . وجهادى فى سبيل تأدية واجبى ، جانبا من اتعس جوانب الطبيعة البشرية ، وظاهرة خلقية سوداء جعلتنى أجتوى الناس لأبقى على حبى للبشرية تلك هى ظاهرة الحسد لله فى لله ، الحقد الذى تبعثه فى نفوس البعض حتى كعكة اليتيم .

أما الشيخ الفقيه العالم الثقة ، النبيه الناسك الأبر ، أبو عبد الله محمد المعروف بابن بطوطه ، فقد امتلأت رحلاته بذكر النساء . كان ينزل بالقطر فيصاهر الصعاليك والعظماء والوزراء والسلاطين . حتى اذا ما آذنت ساعة الرحيل جعل يطلق باليمين وباليسار . واذكر له الخير فى احدى رحلاته ـ أحسب ذلك فى موضع ما من شمال أفريقيا لعله صفاقس ـ حين تزوج وحافظ على عهد الزوجية ، فجعل يتنقل من بلد الى بلد بصحبة زوجه وصهره . حتى اذا وقعت بينه وبين صهره مشاجرة « أوجبت فراق بنته » طلق زوجته ، وهجرها وهجر أباها وهما يقرعان الكف بالكف ، على مسيرة أيام أو أشهر من بلادهما ! وبودى لو اهتم بحاثة الأدب عندنا بأمر النساء فى حياة ابن بطوطه . ففى رحلته اشارات اليهن لا تقدر بثمن . مثل « والتزوج بهذه الجزائر سهل لنزارة الصداق وحسن معاشرة النساء .. ولم أر فى الدنيا أحسن معاشرة منهن . ولا تكل المرأة عندهم خدمة زوجها الى سواها بل هى تأتيه بالطعام وترفعه من بين يديه ، وتغسل يده . وتأتيه بالماء للوضوء ، وتغم رجليه عند النوم . ومن عوائدهن الا تأكل المرأة مع زوجها . ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة . ولقد تزوجت بها نسوة (كذا !) فأكل معى بعضهن بعد محاولة ،

وبعضهن لم تأكل معى ، ولا اســتطعت أن أراها تأكل ، ولا نفعتنى حيلة فى ذلك » . ويقول فى صدد الكلام عن أثر القوت الذى يتغذى به فى احدى هذه الجزر « ولقد كان لى بهـــا اربع نسوة وجوار سواهن ، فكنت أطوف الخ الخ » . أو « وكان الوزير سليمان قد بعث الى أن أتزوج بنتـــه » . وفى وضع آخر : « ورفعت الى بعد أيام فكانت من خيار النساء . وبلغ من حسن معاشرتها أنها كانت اذا تزوجت عليها تطيبنى وتبخر ثيابى وهى ضاحكة لا يظهر عليها تغير » . أو « وكنت قد تزوجت ربيبته وأحببتها حبا شديدا » أو « ثم وصلت الى جزيرة ملوك .. وأقمت بهـــذه الجزيرة ســـبعين يوما . وتزوجت بها امرأتين » .

اجل ، هذا الابن بطوطة كان رحالة حقا ! لأن فهمـــه للأمصار لم يكن قاصرا كفهمنا ، بل كان حكمه على الشعوب مدعما بتجارب أوسع مدى من تجاربنا ذات الناحية الواحدة .

لم يكد يكون للنساء شأن فى حياتنا على سطح المحيط الهندى . فالنســــــاء ـ أحب المخلوقات الى ـ لا تشغلن كثيرا من هـــــذه الصفحات مع الأسف . وكم كنت أود أن تزدحم بذكرهن ، لا على طريقة هذا الشيخ المغـــربى المزواج ، الذى عاش فى القرن الثامن الهجرى ، بل على طريقتى ، وفى القرن العشرين الميلادى .

هذه الحيــــاة بين السماء والماء على ظهر ســـــفينة صغيرة . حمولتها ثلاثمائة طن وطولها أربعون مترا . رجال فى رجال يضربون فى طول البحر وعرضه قرابة الشهر ثم يقيمون بالمرسى من خمسة الى سبعة أيام ليعودوا الى البحر بالتالى ، وهكذا مدى تســـعة أشهر . يشتغلون ما لا يقل عن العشر ساعات يوميا . وقد يمتـــد العمل ببعضهم من طلوع الشمس حتى الليل . كما حدث أن قضى البعض الآخر أربعا وعشرين ساعة ما بين مراقبة شـــباك ، وفرز

وتبويب ، ونزول الى العمل وصعود الى سطح السفينة . أقول :
هذه الحياة تشبه ما أتصور عن حـــالة الحرب . أو هي نوع من
الليمان الإختيارى لبعض المجرمين السياسيين لايراد اذلالهم وان
خلت معاملتهم من فكرة الرافة بهم . وهي حيـاة تقرب الرجل من
فطرته الجيوانية الخشنة . فيكاد ينسى مثله الانسانية العليـا .
وقد ينصرف على البر الى كل ما يشبع نهمه البهيمى من أكلة فاخرة
أو شراب مرىء الخ . ولكنـه حينما يتصل على الأرض بأناس من
ذهنيته وحضارته ، سرعان ما يتذكر الحدود والقيود الاجتماعية ،
فيعود أليفا أكثر مما كان ، مهذبا الى حد الحيـاء فاذا ما التقى فى
المجتمع بنساء جميلات مهذبات ، كان لهن فى نفسه أثر الماء فى طفى
الشراقى . مجرد سماع صوتهن ولمس اطرافهن الرخصة وتقبيل
أناملهن الناعمة .

يجب أن تقدر حالتنا هذا التقدير ، وتفهم تمـام الفهم ليمكن
ادراك شعورى وانا أكتب الآن عن « غادة ممباسا » .

وكان يمـكن أن أقـول غادات مستعمرة كينيـــا . فلم أر
الانجليزيات فى مكان آخـــر من الأرض بمثل هذه الرقة والطراوة
والأنوثة والنعومة . وهذه النعوت المتشابهة ، المشتقة واحدها من
الآخر ، لم توضع عبثـــا . فالانجليزيات الجميلات يوجدن فى كل
مكان . ولكنى لأول مرة أرى كيف يؤثر المنـــاخ على الطبـــائع
والأجسام ، فيخلق جنســـا جديداً من الانجليزيات لم أره لا فى
انجلترا ـ وهذا طبيعى ـ ولا فى الهند ، ولا فى عدن ، ولا فى سيلان
ولا فى مصر . والجنس ليس جديدا على الشرقيات أو الرومانيات
أو الهنغاريات . ولكنه جديد على الانجليزية أن تراها بطيئة الحركة
متكاسلة ، متراخية فى جلستها ، تسند رأسها الى أكف عاجيــة
شفافة ، وتمد ساقيها على مقعد طويل ، وبودها لو حولت نصف
جلستها الى ضجعة لذيذة يتوسد فيها رأسها ذراعها البض . وهى

لا تخفى عنك ضيق ذرعها بجلستها ، فتزحف وتتلوى كالحية ، تريك من تقاطيع جسمها تحت ملابس الصيف أكثر مما يريك الجسم العارى .

لم تكن كل نساء ممباسا الانجليزيات على هذه الحالة من سمو الأنوثة وانتصار الرخاوة الآسرة . ولكن مجرد وجود هذا الجنس الجديد على انجلترا بينهن جعلنا نتساءل أنا وزملائى من البريطانيين عما اذا كنا حيال مصادفة من المصادفات ، أو أن جو أفريقيا الاستوائية خلق بحق هذه المرأة الانجليزية المزدوجة التأنيث .

كان يمكن أن أقول غادات مستعمرة كينيا . ولكن واحدة منهن كان لها فى نفسى ونفس زملائى الانجليز أثر أحسبه تلاشى من نفوسهم ، وهو باق على ممر السنين فى عالم مشاعرى . لذا أنا أتكلم عن « غادة ممباسا » .

نزلت الينا من « الهنترلاند » فى « نيروبى » بصحبة والدها من ذوى الأملاك فى كينيا . التقينا بها فى الأسبوع الأول من سنة ١٩٣٤ بمضيفة ذلك العربى الكريم المحتد الذى يردد اسمه كل انجليزى فى أفريقيا الاستوائية بالثناء والاحترام هذه المضيفة « بنجالو » يقع على شاطىء أفريقيا فى مقابل جزيرة ممباسا القريبة من الأرض ، جعله السير على بن ... محطا لرحال جميع أصدقائه من الشرق والغرب والشمال والجنوب . يقضون فيه أيام الضيافة على أصول الكرم العربى ، مع تمتعهم بكل معدات الراحة الأوروبية .

ذهبنا الى السير على بن ... وكان ذلك فى رمضان فاعتذر لنا عن عدم امكانه الاشتراك معنا فى الغداء بسبب الصيام . وقدمنا الى الفتاة ووالدها . وقد دهشنا أن تنادى بـ « مسز » مع مظهرها اليافع الرقيق ، وكأنها تخرجت أمس فى معهد عال للبنات .

واستأذن أن يتركنا فى قاعة المائدة على أن نلحق به فى حديقة « البنجالو » بعد الغداء .

وكانت تلبس فستان سبور أخضر اللون محبوك التفصيل جعلها بيننا كأن روح الزمرد استحالت امرأة فكانت هى .

ولقد نسيت الآن حتى لون شعرها ، ولكنى أذكر السعادة التى أفعمتنى بقربها — وكان من حظى أن أجلس الى جانبها على المائدة — واذكر صوتها أقرب الأصوات الى صوت الطفولة البريئة ، لولا رخامة حزينة ونبرة خفية ، ربما فاتت على احساسى وانتباهى دون اشارة منها عاجلة الى حياتها فى « نيروبى » والأحراج حول « نيروبى » . وقد سمعت بخبر غرامها وزواجها من شاب ظهر لها سريعا أنه غير جدير بها فانفصلت عنه . هذه الطفلة التى لم تتعد العشرين ربيعا لم تترفق بها الحياة .

وخرجنا الى الحديقة — أو بالأولى الجزء من الحرج الأفريقى الداخل فى ملك السير على — فكانت ملتقى أنظارى وانظار زملائى . ولم يخف عليها أن أولئك الشبان من بنى وطنها ، وهذا الشاب الغريب ، وهم يعيشون عيشة عزلة تامة فى عرض البحر ، قد انتشت نفوسهم بسحرها وشبابها وأنوثتها فكانت نظراتنا تمعن فى توريد وجناتها المفعمة عافية تبعا للحياة الجبلية التى تحياها . وكانت روحها ترفرف سرورا ، وكأن أرواحنا الوامقة قد عقدت الخناصر حول روحها تدللها وزاد من دلالها شعورها بفعل شبابها وجمالها فينا ، فكانت كالحجر الكريم يزيده الاجتلاء ابراقا ، وكثرة الأنوار اشراقا .

وقبيل الأصيل خلعنا ملابسنا اليومية ، وذهبنا فى ألبسة البحر ننتظر الغادة التى كانت هدية أفريقيا لنا فى رأس سنة ١٩٣٤ . وكان انتظارنا لها فى الجبلاية الصناعية التى انشأها السير

على بن ... فى ركن من حديقة « البنجالو » . والتى ينحدر الانسان منها الى حمام بحرى زين يالفسيفساء .

وجاءت « السيرين » تخطر فى لباس أخضر أيضـــا ـ الم اقل بأنها روح الزمرد فى شكل فتاة ؟ ـ وهى ســعيدة بشعورها انهـا مصـدر هناء أربعة من الشـــبان ، فى ذلك اليوم البـــاسم من أيام حياتنـــا .

وسوف تظل مطبوعة فى نفسى صورة ذلك الجسم الكامل ، على دقته ، وعلى روح الطفـولة المنبعث من صاحبته ، وهو يسبح فى مياه بين الزرقة والخضرة وهى الى الخضرة أدنى . ميـــاه هادئة شفافة ، لا ريب انها طالعتنا ذلك اليوم بأجمل مخلوقاتهـا . ولم أشك لحظة ، وأنا أرى « غادة ممباسا » تسبح فى ميـــاه المحيط الهندى المنسابة بين الجزيرة وارض افريقيا ، بأنها احدى بنات الماء احبت انسيا يقطن مرتفعات جبال كينيا ، فغادرت عنصرها لتعيش على الأرض . وها هى ذى . اذ عادت الى الماء فى غلالتها الخضراء ، قد اظهرتنا على السحر الذى فنى فيه عشـــاق البحار منذ بدء الخليقـــة .

قال صاحبى الكوماندر ف ... ضابط الملاحة :

ـ عم حسن ، رو ظمـــاك ورطب عينيك ! اتراك تلقى فى كل تجوالك واكتشافاتك البحرية مخلوقا أبدع حسنا وأكمل تكوينا ؟

ـ لماذا لا تخرج شباكنا مثيله ولو مرة واحدة يا ف ...

ـ ليس كل من يشتغلون بعلوم البحـــار ملاحيس فن مثلك يا عم حسن . تأمل ما يفعل رئيسنا اذا ما صادت شـــباككم مثل هذه الغادة . سوف يكلفك تحنيطها ووضعها فى حوض الأســـماك

المملوء بالكحول ، ويطلب منك أن تدون مذكرة بألوانها وابعـادها .
ثم ينتهى بأن يعلق بأذنها بطاقة عليهـا اسم لاتينى سخيف مثل
Domain ineptissima

— وسوف أغير هذا الاسم رضى العـلم أو لم يرض . فهى عنـدى Fermina eterna, Donna Superba, Sirema divina

— انتم سريعو الاشتعال أيها المصريون . من أى خشب انتم ؟

— من « الأشراء » أنا ولى أن أتكلم عن نفسى . من أى حـديد أنت يا ف . . . ؟

— لا تسلن فقد ساءت سمعتنا ، وحسب علينا ضبط عواطفنا برودا . ليس من شأنى أن أصلح سمعة البريطانى فى العالم .

وبعد بضعة أيام غادرت السفينة . . . ممباسا . وكنا فى هذا الميناء موضع حفاوة البريطانيين الذين لم يساوموننا اعجابهم بتلك الباخرة الصغيرة عبرت اليهم المحيط الهندى من بومبـاى ، وقد قضت على سحطه نحو الأربعـة أسـابيع ، قطعت أثناءها خط الاستواء منتقـلة من نصف الكرة الشمالى الى نصفها الجنوبى . ولقد أقبلوا يزورونها ويشاهدون ما احتوت فى بطنها من أجهزة ، وما جمعته شباكها من عجائب البحار .

وكانت الأنظار ترمقنا من شرفات الجالية البريطانية صبيحـة سفرنا . ونحن نجيب على التحيات البعيـدة بصفير متواصل . وتابعت السفينة سيرها وهى تختال فى البوغاز الواقع بين القـارة وجزيرة ممباسا . وبينما الضباط منهمكون فى ملاحتهم الدقيقة ، وف . . مشغول بخرائطه وأجهزته ، كان أربعة من الشبان — ثلاثة من الانجليز وواحـد مصرى — واقفين على ظهر السفينة ، وقد انتحى كل منهم ركنا جعل يدير منه منظاره نحو « بنجالو » واقامه

على شاطىء القارة رجل عربي كريم ، يستضيف كل من يفد عليه من بلاد « الهنترلاند » .

هناك وسط حديقة « البنجالو » ، والى جانب الصارى الذى رفع عليه السير على بن .. راية التحية لنا ، رات عيوننا جميعا وانطبعت على قلوبنا جميعا ، آخر صورة لغادة ممباسا وقد وقفت فى بيجاما زمردية تلوح لنا بيديها ، وترسل لعشاقها الأربعة آخر اشعة من ذلك الضياء السعيد نشره جمالها العلوى على حياة الشدائد التى نحياها فوق ظهر العباب .

حياة البحار

ركبت البحر كثيرا قبل ان أعيش تسعة اشهر بطولها على ظهر هذه السفينة العلمية ، فلم أعرف الا القليل عن حياة البحر وركوب البحار . ذلك ان المسافر بالبواخر الكبيرة يعيش داخلها اكثر مما يعيش على سطحها . وهو فى اللحظات التى يتمشى اثناءها على « الكويرته » لمساعدة الهضم ، يلقى نظرة عابرة على البحر مرة مقابل عشر نظرات يحدج بها سيقان الغادة التى أسرت ناظرته فى قاعة الطعام ، وعشر نظرات يتساءل فيها عن علاقة هذا الرجل الشيخ بالشابة التى تخطر الى جانبه ، وعشر نظرات الى النصف الشقراء التى انتحت ركنا من حديقة الشاى تصغى الى حدث ناعم ، يلقى به شاب ممشوق القد شعره لامع السواد ، وذراعاه تنضان حياة وقوة خارج قميص ياقوتى ، قصير الأكمام مفتوح الصدر . وتتقصى ببصيرتك مقدار تلامس هذين الجسمين ، وكانا غريبين عن بعضهما تمام الغربة حينما التقى صاحباهما على ظهر السفينة . بين البنج بونج ، وتسديد رماية أقراص المطاط والخشب ، وسماع الموسيقى ، وبين الافطار والشوربة والغداء والشاى والعشاء بين الاكل والهضم تنقضى حياة المتنكب متن البحار على ظهر السفن ذات حمولة الآلاف طن .

وانما يعرف البحر من يكابده على ظهر سفينة صغيرة طولها لا يتعدى الأربعين مترا ، وحمولتها الثلاثمائة طن . على ألا تكون يختا جهز بمعدات الترف .

فانت على ظهر السفينة الصغيرة تعيش مقربا الى البحر . هو وحده أساك وعزاؤك . وفى أمواجه وما يضطرب بجوفه تسليتك وشغلك الشاغل . فاذا ما بعثت العواصف بنذيرها درت تربط المقاعد وتحشر أمتعتك المفككة ، وتعيد الآلات العلمية الى صناديقها وتقفل نوافذك زجاجا وحديدا . ومر بك بحار السفينة بمفتاحه يوثق من رباط نوافذك وأجهزتك ومقاعدك . ثم صعدت الى سطح المركب فى قبائك المطاط وقبعتك المسدلة على عينيك وقفاك ، لتطالع الأفق وتدرس ارتفاع الموجة ، وتقيس ضغط الجو ،وحرارة الماء ، وكمية الرطوبة ، وسرعة الريح . وتساعد ضابط الملاحة فى قياس ارتفاع الشمس قبل أن يغيبها غمام النوء ، أو تقدير انفراج زوايا النجوم عن الأفق قبل أن تمحوها حلكة الاعصار . وأنت على ظهر السفينة الصغيرة تسعى وسط العاصفة الى عنابر البحارة لتواصل علاجك لمريض بالحمى ، أو تسكن من ألم ممغوص الكلى . تمسك بكل اطار وكل حاجز . وتنفض الماء عنك وقد غطتك الموجة التى اكتسحت سطح سفينتك المكشوفة . وأنت تصحو فى الفجر تطالع نجمة الصباح ، وتسائل أعماق البحر وقد هدأ فى اللحظة التى يعبر فيها قرص الشمس خط الأفق ، وكأن الشمس خارجة من منامة لها فى أعماق المحيط يتقدمها رسلها وخولها وحراسها ، اشعاعات حمراء أو ذهبية موشاة بالبنفسج . ولا شك انك نسيت فى هدوء هذا اليوم . وأمام الصفحة الزرقاء الصافية ، ما كان من أمر العاصفة الهوجاء بالأمس ،العاصفة التى أحالت نومك كابوسا، وقد تكون قذفت بك من سريرك الخشبى صريعا فى أرض قمرتك ، برغم الحاجز المرتفع الذى فرض فيه أن يحمى جسدك المنسى فى النوم .

تعيش قريبـــا من كل شيء في ســفينتك . تسمع صوت « ورديات » الليل تتبدل كل أربع ساعات ، وتعتـــاد دق الآلات منتظما كأنه نبضات قلبك . نومك وصحوك رهينان بما قد يبـدو لضابط المشى من مظاهر البحر . فانه ليلومن نفسه اذا لم يوقظك حين تمر سفينتك بنطاق البحر المضيء . وانك لسعيد أن يفكر بايقاظك من سباتك لترى على امتـــداد البصر اقيانوسـا تتوهج أمواجه بأضواء فسفورية تكاد تطـالع على نورها كتابك . وكلمـا تكسرت الأمواج على جوانب سفينتك أو مزق حبل « البركيتـة » حجاب البحر ، اشتدت الأنـوار التي لا تشبه ضوءا عرفت الا أن يكون في أرقام ساعتك الفسفورية ، أو أجسام اليراعات تتوهج تبعا لتيقظ الغريزة الجنسية فيها . ولكن هذا الضوء الى جانب توهج الأقيانوس كنقطة الماء الى مجموع مياهه . واذا أويت الى مخدعك بعد ظهيرة يوم هادىء الريح ثقيل الحر ، فانك شاكر للبحار الذى ينادى عليك من أعلى المشى لترى أسراب الدلافين تسابق سفينتك وهى تتداعب وتتسابق ، قافزة من الماء بأجسامها السوداء اللامعة، في أقواس بديعة تكشف لك عن بياض بطونها . وانك لتتأمل هـذه الدلافين ، وتحاول أن تفهم كيف تأتى لها أن تسابق سفينتك التي تسير بسرعة عشر عقد ، دون أن يظهر في حركات جسمها أقل أثر لمجهود . أهى حركة زعنفة الذنب تعمل في المـاء كما يعمل رفاص سفينتك ، أو هى عضلات الجسم تتحرك في الخفاء فترسله كالأفعى دون أن يبدو خارجه أثر التلوى ؟ أم هى الوثبة خارج الماء يستمر اندفاعها داخله ، ويســاعد التكوين الانسـيابى للدلفين وجلده الأملس على هذا الاندفاع ؟

وأنت على سفينتك الصغيرة للبحـر قبل أن تكون لنفسك أو لجيرانك . تلبس قميصا وسراويل هى كل ما يغطى جسدك ولا تفكر بنوع القميص الذى يظهرك على احسن ما تكون هندامًا . أو نوع

ورباط الرقبة الذى قد يلفت اليك نظر الغادة شغلتك بجمالها منذ رأيتها فى قلم الباسبور . قميصك من صنع اليابان تشتريه فى الجملة بما يساوى فى نقدنا قرشا . هو فانلة رقيقة تنتهى الى أكتافك كأشد ما يكون عليه الديكولتيه تفتحا . وسروالك اشتريته بالجملة أيضا من التيل الأزرق الذى تصنع منه ملابس الوقادين . وحذاؤك من التيل الأبيض مطاطى النعل ، استحال على ظهر السفينة الى لون أسود بفعل الشحم والزيت يتصبب من الونشات مخلوطا بطين رمادى أو أحمر ، جرفته أجهزتك من أعماق البحر البعيدة . وقد لا يستريح قدماك فيه جديدا فتشكر اللحظة التى يعمل أصبعك الكبير فى طرفه خرقا واسعا مشرشر الحافة ، وهو نافذة التهوية الى قدميك . أو قد تفضل السير حافى القدم فوق « كوبرته » مستوية من خشب التك ، يغسلها البحارة يوميا ، ويحكونها بالرمال مرة كل أسبوع .

وأنت على ظهر السفينة الصغيرة للبحر وأعماقه ، وللسماء وأفلاكها ، قبل أن تكون لنفسك وجيرانك . للبحر سمعك وبصرك واحساسك وكل روحك . هذا لون من ألوانه يبدو لك غريبا فتسعى الى تفسيره . وهذا نوع من الموج وليس موجا ، فهو يشبه الصدر يعلو ويهبط فى حركة تنفس النائم الناعم . هو الأثر الباقى من عاصفة بعيدة ، هو آخر ما يطرق السمع من آثار الجلبة الهائلة فى اصقاع مترامية عنك ، هو « الكونفتى » و « السربنتان » وفوانيس الورق وطراطير السامرة والزجاجات الفارغة والكراسى المقلوبة ضحى المرقص الصاخب !

وما هذا الذى يبدو فى الأفق ؟ هذا « نافورة الماء » ، قبلة السحاب والبحر ! فالسحاب يمد شفتيه ، والبحر يمط فى شفتيه . حتى تلتقى الشفاه فى منتصف المسافة بين السحاب والماء .

وهذه الأعشاب السابحة يتتابع موكبها منذ لحظة ،هى أعشاب « السرجاس » . من أين أتت والى أين تسير ؟ من يدرى ؟ ربما كانت موكب العرس لبعض الأحياء البحرية . الا ترى هذين الحوتين يرسلان فى الجو نافورتين من الماء الى ارتفاع عظيم ؟ هما ذكر « البتان » وأنثاه ، حوت « العنبر » صبيحة العرس ولا ريب .

ثم ما هذه الأسراب الطائرة ؟ كيف يمكن أن تكون جرادا أو طيورا ونحن على مسيرة أسابيع من اليابسة ؟ انما هو السمك الطيار يقفز من البحر فى أيام هدوئه الكامل ويحلق فى الجو ما احتملته زعانفه المنبسطة كالأجنحة . بضع ثوان من الزمن تحلق أسرابه مئات وآلافا لتعود الى الماء حيث تعتمد على زعانف الذنب لتقفز قفزة ثانية وثالثة الى الجو ثم تغوص فى اليم للمرة الأخيرة .

أنت على ظهر السفينة الصغيرة للبحر والسماء . لا للمغازلة والبنج پونج والرقص والأكل والهضم فوق المدينة العائمة حيث نقلت لك شركات الملاحة سريرك وحمامك وحديقتك وموسيقاك وكباريهك وسينماك . واغتيابك « ونميمتك وغزلك وفضائحك . السفينة الكبيرة كازينو بين مدينتين وفندق بين فندقين . فترة من حياتك الأرضية تقضيها ناعما . أما السفينة الصغيرة فهى مسكنك البحرى الدائم ، وما الاقامة بالموانى الا فترة قصيرة تضطرك اليها حاجات العيش من ماء وغذاء ، وحاجات الآلات من فحم وزيت وماء .

حتى الميناء لا تعرف أيها المسافر على ظهر الكازينو العائم شيئا من سرها وسحرها . انت تعرف بوليس الميناء وحماليها ، ولكنك لا تعرف غساليها وحلاقيها وقواديها . ولم تر بائعيها المتنقلين يسعون اليك فى فلك صغير ، نضدت على جوانبه سجاجيد ايران ، وعقود قهرمان ، وفيلة من الأبنوس والعاج ، وأمشاط الساغة ،

والخناجر اليمانيـــة ، الى جانب صناديق الصابون واحمـــال النارجيل وسراويل العمال واكوام الأسماك ، انت تغادر سفينتك الكبيرة فتترك البحر وراءك وتنساه . ولكنك فى سفينتك الصغيرة تقطن الميناء يومين أو ثلاثة ايام ، فتعجب من البحـر الذى عرفت وقد استحال بحيرة آسنة تسبح على سطحها بقعـــات الزيت . فينسـيا قذرة مسودة ، ملأها دخان الفحم ، وسعت على ســطح « لاجونها » اللنشيـــات والسنابيق والهوريات تحمل الحـــواة والمشعوذين وتجار الحرير الهنـدى واليـابانى ، وباعة الصــدف والحجـارة الكريمــة والساعات والأحـذية والأحزمة والقبعـات والفانلات والقلانس .

يوم حشر مائى اجتمعت فيه الملل والنحل وتبلبلت فى صبيحته الألسن . يلتقى فيه الضابط البحرى ، نشــأ فى بيت مجـد على شواطىء « ديفون » أو بين نجيل « اسكس » بحمال الفحم جاء من الصين أو احراج سرنديب وغابات الملايا . ويتزاور القومنـــدان الايطالى لطراد ايرانى مع القومندان الهولنـدى لدراعة وصلت توا من بحار جاوة أو ميناء روتردام . سوق دولى تتجاوب فيه أصوات الصفافير والأضواء الكشافة والوان الأعلام !

ثم ماذا تعرف أيها المسافر على ظهر الباخرة الكبيرة من امـور المناورات الدقيقة التى أوصلتك آمنا وادعا الى المرفأ ؟ بينما أنت ترقب على ظهر سفينتك الصغيرة كل حركة وكل دورة . وتروى كيف تعد الروافع وتلقى الحبال وتربط فى المراسى والشمندورات . أو كيف ترمى الأناجر اذا ما قدر لسفينتك الصغيرة الا تلقى جانبا من الأرصفة تستند اليـــه وهل رأيت عنابرك تمـلأ بالفحم وقد احرقت فى رحلتك التى استغرقت أسابيع كل ما امتـــلأ به بطن سفينتك من فحومات بلاد الغال أو البنغال ؟ هل وقفت لحظة على

سطح السفينة ورايت كيف استحالت بشرتك البيضاء الى لون
الحمالين الصوماليين جاءوا اليك فى « برطوم » امتلأ بأكياس الفحم
يحملونه الى سفينتك فى صف هندى ، كانهم بناة اهرامات بربرية
وسط القارة المظلمة !

واذا لم تكن رايت كل هذا ، فلم تعرف من أمر البحر شيئا ،
وانت أجهل بالميناء الغريب مما كنت حين غادرت ميناء بلادك .

تلك السفينة

عرضت للكثير منا ظروف تأثر بمظهر شـــاب غنى فقد ثروته ودار يتسكع على القهاوى مهلهل القميص ، ممزق البنطلون كالح الوجه والطربوش ، قذر اللحية ، مبقور الحذاء .

ورأى البعض منـــا أناسا كانوا ذات يوم بين سمع البـــلاد وبصرها ، فاذا بهم يتوارون وتنسى الأمة شأنهم ، ويعودون أفرادا عاديين خاملى الذكر ، يتحملون زوال مجـــدهم بكثير أو قليل من الهدوء . وآخر من أذكره منهم زعيم انزوى فى ختام حياته المفعمة بالأحـــداث الجلى ، فكان يرى فى ركن من أركان جامع صغير يؤدى صلواته بانتظام ، ولا يتصل بانسان وقلما عرف المصلون حوله أن البلاد اهتزت يوما من أقصاها الى أدناها أثر حركة احتجاج منه ، وفقدت فى هذه الهزة الكثير من حرياتها .

وقد يتاح لنا أن نشاهد ســـيدة ابيض شعرها وتقوس ظهرها تتقدم الينا طالبـــة نوعا من المســـاعدة ، فنلقى بنظرة عابرة على الوريقة التى تتقدم بها فاذا عليها أسم مغنية أو راقصة أو ممثـــلة دوخت القلوب فى شبابها ، وبددت الثروات ، و « أقفلت البيوت العامرة » كما كانوا يقولون .

ولقد أتيح لى أن أركب هذه السفينة العلمية المجيـدة مرات بعد عودتها من المحيط الهندى . ومعاذ الله أن أقول بأن الصـدأ أكل حديدها ، أو أن الحشرجة هى كل ما يسمع من صوت آلاتها. فهى لما تزل فى شرخ الشباب ، والعنـاية بها كبيرة كما كانت وأكثر مما كانت . ألوانها جديدة ، وأعلامها مرفوعة وشـعارها تتألق نجومه الثلاث كأشد مما تألقت فى أى وقت آخر بالمحيط الهندى . رجالها عادوا أكثر نظاما ، وأسلحتهم ترسل فى مياه المبناء بريقا خلابا . وقد أعلمت فيها يد العناية والاصلاح فجعلت منها عروسا فضة الاهاب . وذلك بفضل النظـام المحكم الذى تدار به فى أيدى ضباطها الأكفاء .

ركبتها فانطلقت بى الى عرض البحر شامخة « البروة » تضرب بها العباب ضربات كأنها ضربات السيف . وسمعت وجيب آلاتهـا تدور كأدق ما تكون عليه المحركات دورانا ، وتدليت من « القش » أشرف على رقاصها فوجدته . يتابع ضرباته المنتظمة فى عنفهـا وهدوئها ، فيترك خلف السفينة أذيالا من الزبد تنفرج أمواجا تتميز عن أمواج البحر الأصيلة .

ونمت فى « قمرتى » فوجدت فراشـها أنعم ملمسـا وأنظف أغطية . ودخلت المعامل فوجدتها أنيقة مرتبة ، يدخل اليها النـور من « ممبرطات » شفافة الزجاج براقة النحاس .

ومع كل هذا لم أستطع التغلب على الوجوم الذى تثيره أشباه المناظر التى قدمت بها لهذه الصفحة ،فى كل مرة تحتوينى السفينة المجيـدة .

ولعلى لم أحسن التشبيه فى مقدمتى ، وكان الأولى أن أشبه السفينة فى عهدها الحالى بالممثلة التى فقدت كل شـهرتها مع احتفاظها بثروتها وأناقتهـا ، أو بالزعيم الذى فاتتـه الحوادث

وغلبته ، فاحتفظ بقوامه وشخصيته ، ولكنــه تسمر بزعامته ، بينما الزمن يعدو بخطواته الجبارة وقد تركه ظهريا .

على أن توافق جوانب التشبيه او دقتــه امر ثانوى . ما دام شعورنا فى كل الأحوال يتفاوت تبعا لقسوة القــدر على من نرثى لأمره . وقد يكون رثاؤنا لمجده الدارس أشد من حدبنا على عوزه ومسغبته .

وشعورى بزوال مجد هذه السفينة كلما ارتقيت ممشــاها او انحدرت الى باطنهــا ، هو فى قسوته أشـــبه بشعور المرء أمام حطامات الانسانية التى عرضت لها فى اول هذا الكلام .

ذلك لأن البــاخرة .... التى قطعت ٢٢٠٠٠ ميل فى طـول المحيط الهندى وعرضه ، والتى دارت آلاتها بلا انقطاع اربعـــة اخماس كل شهر من تسعة أشهر متوالية ، قامت فيها بملاحـــة جريئة نيفا ومائتى يوم .

تلك السفينة التى قطعت خط الاستواء أكثر من مرة ،وحملت العلم المصرى وشعار البحرية المصرية الى الأقطار المترامية ، فكانت تثير بعنادها وقدرتها على ركوب البحر شـــعور الاعجاب حيث حلت .

تلك السفينة التى حملت بعثة علمية من أهم البعثات البحرية فى هذا القرن ، وكانت جرائد العالمين تردد اسمها طوال رحلتهــا ، والى بقية العام الذى عادت فيه الى قاعدتها بالاسكندرية .

تلك السفينة التى زارها العلمــاء والحكام فى مصر والهنـــد وسيلان وشرق آفريقيا وزنجبار وسيشل وشــبه جزيرة العرب

استحالت اليوم كتـلة من صلب لامع ، وحـديد « مراشم » مدهون ، ونحـــاس متألق راق ، وخشب مغســـول ممسوح ،

وعدسات وآلات وشباك وأجهزة وأدوات تتوسد صناديقها المبطنة بالمخمل ، وتلتحف بأغطيتها من الكتان .

تتردد في ارجائها أوامر عسكرية ، ووقع احذية لامعة ، وصلصلة أسلحة جديدة .

هذا كل ما بقي منها اليوم . ولا عيب عليها ، فهي في هذا شبيهة بغيرها ، لولا أنها تحمل على أطراف صواريها ، وفي بطنها ، وعلى جوانبها ، آثار جهادها المجيد ، وبلائها في المياه الغريبة النائية . ولم تستطع ـ والذنب ليس ذنبها ـ أن تحافظ على مجدها الغابر ، أو تحتفظ بأكاليل الغار التي صيغت لها ، أو تبقى على شارتها الخضراء الطويلة ، حملتها في رحلتها الأخيرة بشيرا بعودتها الى أرض الوطن .

ولقد رأيتها تسترجع صولتها مرة واحدة بعد رحلتها التاريخية ، لتعود الى مرساها مرة أخيرة ، أسيرة السلاسل والحبال ، رهينة الاسكلة والشمندورات .

اريد أن أشبهها بالطلل البالي ، بالمدن المهجورة ، بالمعابد القديمة امحت دياناتها . ولكن كيف أجرؤ على ذلك ولما تزل باخرة تنبض بالحياة ، وتترقب اللحظة المناسبة لتعود الى ركوب الموج العالي ، وملاقاة العواصف المدوية والأنواء المخيفة ، كأنها الجواد الأصيل يتوثب ويضرب الأرض بحوافره استعدادا ليوم الرهان .

ولكنها مع هذا ليست شبيهة بالطلل والمدن المهجورة والمعابد امحت دياناتها فحسب ، بل هي كل هذه مجتمعة ، اذ هي رمز لحظها العاثر جميعا .

فقد سافرت عليها في مهمة ليست لها . كانت فيها كـ « هرقليس » يغزل لـ « أمفالة » وقد حملت هراوته ، وتجلببت بجلد الأسد الذي اتخذ منه الجبار جلبابا .

وكان أن سمعت الهرج والمرج الذى اعتدت سماعه لدى تأهبها للخروج من الميناء ، وسمعت قعقعة السلاسل وهمهمة الآلات .

وخرجت الى البحر تشطر أمواجه شطرا بأنفهـــا الرومانى الشمخ . والقيت نظرة الى الخلف فوجدت الراية الخضراء ترفرف فوق صارى المؤخرة ، والشـــارة ذات الثلاث نجوم منتشرة تحت لمسة الريح ، كالسهم يخترق الفضاء .

ولكنى عبثا درت أبحث فى أرجائها عن تلك الروح القوية التى سرت فى أعطافها تسعة أشهر . فقد خفتت أصوات الآلات العلمية . وهجرت المعـــامل . وخلت قمرات الاخصـــائيين الا من ملابس القومندان منشورة تتهوى . وذلك الســـلم الصـــاعد من طابق الاخصائيين الى ظهر السفينة ، عبثـــا جعلت أنصت الى صوت الأقدام تهرســـه صعودا وهبوطا فى الليل والنهـــار ، وقد حمل أصحابها نماذج الأحياء من كل عجيبة نادرة أخرجتها الشباك من بطون الأقيانوس . عبثـــا أنصت لصوت المســـبر الكهربائى نقرع عشرات المرات فى الدقيقة ليسجل فى قمرة القيـــادة عمق البحـــر تحت السفينة . عبثا أنصت عند الفجر والزوال والغروب لصوت صديقى الكوماندر ف ... يطالع ارتفاع الشمس أو النجوم وهو يأمر : « استعد ! اضبط ! عشرة ، خمســـة وخمسون » فيثبت الضابط النوبتجى خطوط الطـول أو العرض كما تتبين فى زوايا الأسطرلاب وعدساته . عبثا أنتظر مقدم الزملاء الى قمرتى لتناول كأس « الجن » اليومى قبيل العشاء !

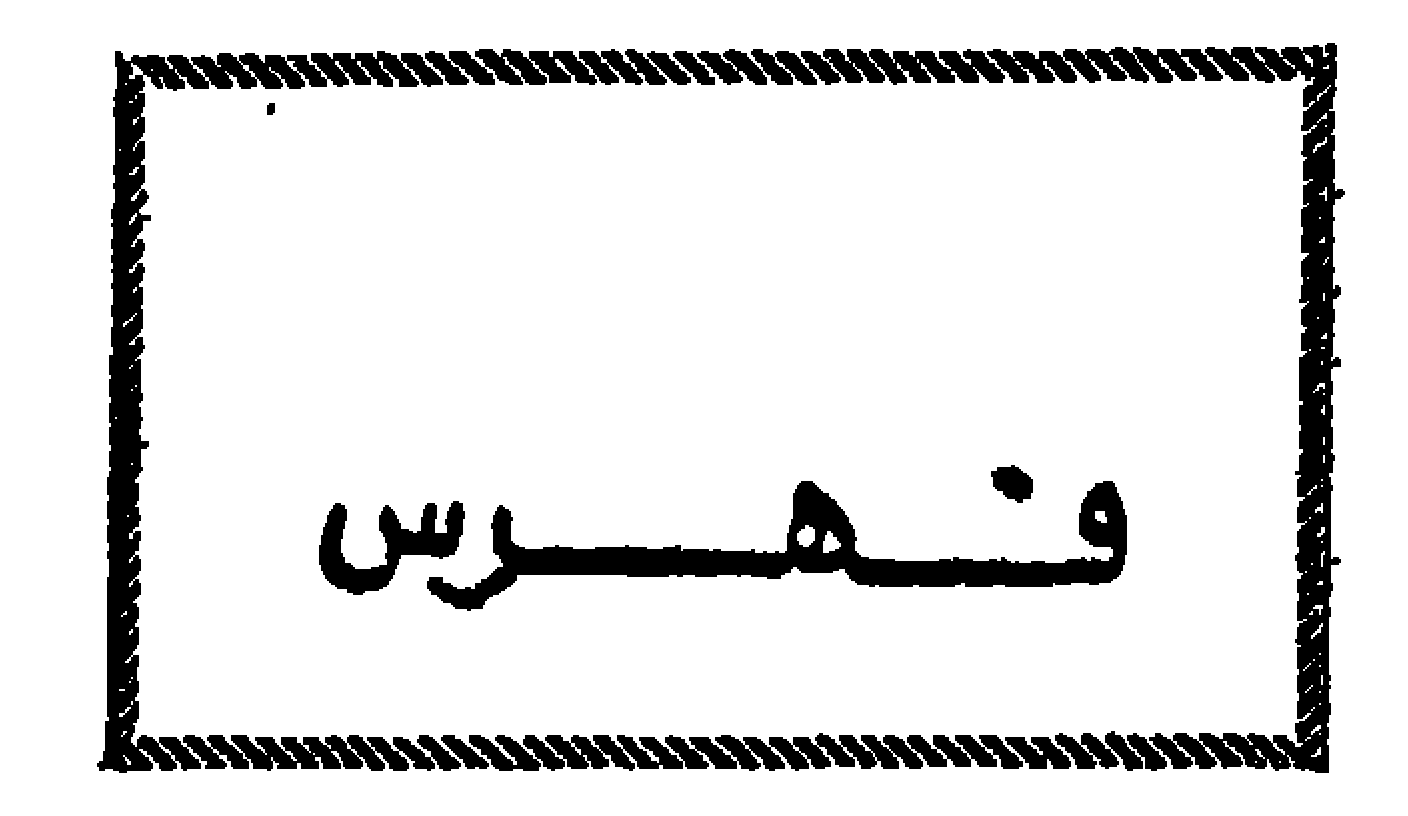
تلك الحياة العجيبة الضاربة فىأرجاء الاقيانوس الواسع وسط ذلك المعسكر العائم ، بين جنود تسلحوا للفتح العلمى ، لا للمذابح البشرية ، خفت جرسها فوق هذه السفينة .

ولقد عاد كل منهم الى وطنـــه وعمله ، وعادت ســفينتنا في نفوسهم ذكرى يزيدها الزمن ائتلافا . ولكنهم تركونى هنا وحدى ، كالشاعر البدوى ، ابكى فوق الدمن ، واستبكى الرائح والغادى !

تركونى أجوس خلال هذه القمرات والمعـــامل ، فتتألب على أشباح ذكراهم حتى لاخال نفسى شبحا بين الأشباح .

ايه أيتها السفينة ! ايه أيها الجواد الأشهب !

هل قدر لنا أن ننوء بحمل الذكرى ؟ أو اننا سوف نعود سويا الى خوض البحار النائية ، حيث للموج اصطخاب وهدير وللاعصار صرير وصفير ؟



فهرس

رقم الايداع بدار الكتب : ٧٦/٢٧٧٦
الترقيم الدولى : ٢ - ٠١٩ - ٢٩٦ - ٩٧٧ - ISBN

« طبع بمؤسسة دار الشعب »

● **المراسلات :**

التحرير : ١١١٧ كورنيش النيل « ماسبيرو » تليفون ٩٧١٠٥٦

الادارة : ٢٦ شارع منصور « باب اللوق » تليفون ٣٣٩٧٦ ٣٣٩٧٧ (صندوق بريد ١٣٢٨)

الاعلانات : يتفق عليها مع ادارة المجلة تليفون ٣٣٩٧٨

ما أشقى الحياة بلا نساء ، وما أشقها بصحبتهن !

أحب ما فيهن الى نفسى أن يكن مصدر هذه الشكوى المزدوجة التي يكاد ينقض آخرها أولها . ومع أنى شديد الشعور بها ، مخلص فى التعبير عنها ، الا أنى لست فى الحق صاحبها . وانما أنا أترجم بتصرف كلمة اللورد بيرون المشهورة ((أعجب العجب أن الحياة لا هى ممكنة بغير النساء ، ولا هى ممكنة بصحبتهن)) .

انما قلت ((ما أشقى الحياة بلا نساء)) ولم أقل وما أشقاها بصحبتهن ، وما أشقها . . ولتفسر قارئاتى كيفما تفسرن ما تنطوى عليه هذه المشقة ، ما دام الشطر الأول يدل على أنى قابل بكل ما تنطوى عليه صحبة النساء من مشقة ، فى سبيل الا أشقى بسبب غيابهن عن حياتى .

د . حسين فوزى

طبع بمؤسسة دار الشعب

٣٠ قرشا